شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١ إلى الدرس ٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٠/٠٥ هـ

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

فنبدأ مستعينين بالله عز وجل في قراءة هذا الكتاب القيم والمؤلَّف النافع «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . وهذا الكتاب مع صغر حجمه إلا أنه عظيمٌ جدًا في بابه ، وقد جمع فيه مصنفه رحمه الله غُرَر هذا الموضوع وأسسه وأصوله ، وجمع فيه طرفًا مباركًا من نصوص الشرع فيما يتعلق بأصول الإيمان .

والإيمان الذي خلقنا الله عز وجل لتحقيقه وأوجدنا لتكميله وتتميمه قائمٌ على أصول لا قيام له إلا عليها، وشأن الإيمان في قيامه على أصوله كشأن البيت لا يقوم إلا على أعمدته وأسسه ، وكشأن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها؛ فأصول الإيمان منزلتها في الدين منزلة الأصول من الأشجار ، والقواعد من البنيان ، ومنزلة الرأس من الجسد؛ ولهذا إذا عُدمت هذه الأصول أو عُدم بعضها انهدم الإيمان ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤] ، فانعدام أصول الإيمان أو أصلٍ منها محبطٌ للأعمال مبطلٌ للدين فلا قيام للدين إلا على أصوله وقواعده .

وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلًا للإيمان بالشجرة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥] ؛ فجعل الله عز وجل مثل الإيمان مثل الأشجار ، بل إن المراد بالشجرة هنا تحديدًا النخلة كما هو مبين في السنة في الصحيحين وغيرهما عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ لاَ يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا ، وَلَا ، وَلَا)) ذكر صفات لها جعلها الله تبارك وتعالى مثلًا للمؤمن، فخاض الناس في شجر البوادي فلما لم يعرف أحد منهم قال عليه الصلاة والسلام : ((هِيَ النَّخْلَةُ)) ؛ فالنخلة جعلها الله تبارك وتعالى مثل للمؤمن . والنخلة لها عرقٌ راسخ في الأرض ولها أصلٌ ثابت ولها فروع قائمة ، والإيمان يقوم على أصل وله أيضا فروع ، الإيمان قول واعتقاد وعمل ؛ اعتقادٌ في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح ، فالإيمان بمثابة الشجرة ، الإيمان شجرة عروقها في القلب ، ومكان نباتها ونماءها هو القلب ، ولها سقيٌ يغذِّيها كالشجرة وهو الوحي

؛كلام الله عز وجل وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكلما عظم نصيب الإنسان وحظه من الوحي عظم نماء شجرة الإيمان في قلبه .

وهذه الشجرة لها أساس تقوم عليه وهو الاعتقاد الصحيح ، ولها فروع وهي الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية التي يتقرب بها المسلم إلى الله تبارك وتعالى ، ولها ثمار مثمرة ثمار مستمرة ، ولها جنًى لذيذ دائم ، تؤتي أكلها كل حين ، وثمر هذه الشجرة ثمرٌ مستمرٌ دائم في الدنيا والآخرة ، وثمار الإيمان على صاحبه في الدنيا والآخرة لا حد لها ولا عد، بل إن كل خير ينزل وكل نعمة تُنال وتحصل للعبد في دنياه وأخراه هي ثمرة من ثمار إيمانه ونتيجة من نتائجه ، وقد قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي: «للإيمان ما يزيد على المئة فائدة ذكرت في القرآن» وعدَّ جملة منها. كذلك الإمام عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتابه العظيم «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» عقد فصلًا عظيما جدًا في بيان ثمار الإيمان وفوائده وعدَّد جملة كبيرة من فوائد الإيمان .

الشاهد أن الإيمان لا يقوم إلا على أصوله وقواعده ؛ فهو بمثابة البناء ، واستقامة البناء وقيامه إنما يكون على أصوله التي بيّنت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وأصول الإيمان ستةٌ ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام مجتمعةً في حديث جبريل ؛ عندما سأل النبي عليه الصلاة والسلام قائلا «أخبرني عن الإيمان؟» قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، فهذه أصول الإيمان التي عليها قيامه . وجاءت أيضا مجتمعةً في غير ما آية من كتاب الله عز وجل كقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وقال الله عز وجل في آخر السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال الله جل وعلا في سورة النساء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦] وجاء ذكر هذه الأصول في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل .

فهي أصولٌ عليها يُبنى الإيمان ، ولا قيام للإيمان إلا عليها ، وهي كما نبه العلماء رحمهم الله أصولٌ مترابطة مرتبط بعضها ببعض ، آخذ بعضها ببعضٍ ، لا يُقبل بعضها دون بعض ، فمن آمن ببعضها لزمه الإيمان بباقيها ، ومن كفر ببعضها فهو كافرٌ بباقيها ، الإيمان ببعضها يستلزم الإيمان ببقية الأصول ، والكفر ببعضها كفرٌ بالإيمان وكفر بالله ، لأنها أصول مترابطة لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعةً ؛ فإذا فُقِد منها واحد انهار البناء وانهدم الإيمان، من وُجد منه كفرٌ أو شك بالملائكة أو بالقدر أو بالكتب أو بالأنبياء أو بواحدٍ من الأنبياء فوجود الكفر محبط

للأعمال هادمٌ للإيمان ، وقد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، فهذه الأصول لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعة ، فإذا فُقد واحد منها أو فُقد بعضها لم ينتفع الإنسان بعمل ، ولهذا أُثِر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في القدر : «القدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده» لا يكون موحدًا لا يكون مؤمنا بالله من يكذب بالقدر ، لا يكون مؤمنا بالله من يكذب بالملائكة ، لا يكون مؤمنا بالله من يكذب بكتبه التي أنزلها أو برسله الذين بعثهم سبحانه وتعالى ، فالكفر بشيء من هذه الأصول كفرٌ بالله تبارك وتعالى .

ولهذا اعتنى العلماء –رحمهم الله وغفر لهم وأحسن إليهم – بهذه الأصول وبيانها وإبرازها وذكر شواهدها ودلائلها نصحًا للأمة ، وبيانا للعباد ، ومعذرة إلى الله تبارك وتعالى ، وكُتِب في هذه الأصول كتابات كثيرة مطولة ومختصرة في القديم والحديث ، ومؤلفات أهل العلم في الإيمان وبيان أصوله كثيرة جدا ، وتأتي هذه الرسالة المختصرة جامعة في بابها مع اختصارها أصول الإيمان وذِكر شواهدها ودلائلها وجمْعها جمعا مختصرا مفيدٌ جدًا للمسلم ؛ ففيها فائدة عظيمة للمسلم ولطالب العلم المبتدئ ، وفيها أيضا تذكير لطالب العلم ولأهل العلم بما جمعته وحوَته من دلائل عظيمة وشواهد مباركة من سنة النبي صلى الله عليه وسلم في تقرير هذه الأصول العظام التي عليها يُبنى الإيمان .

ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لحسن تعلم أصول الإيمان تقربًا إلى الله عز وجل ، واجتهادًا في تحقيق هذه الأصول وفهمها فهمًا صحيحًا تُعمر به القلوب وتزكو به النفوس وتطيب به الأعمال وترتفع به درجات العبد عند الله تبارك وتعالى ؛ فإن العبد ترتفع درجاته عند الله عز وجل ارتفاعًا عظيما بما يُملأ به قلبه من الإيمان أعظم من القيام بالأعمال ، فأثر الإيمان في ارتفاع الدرجات أعظم من أثر الأعمال ، وقد جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُم)) قَال الصحابة رضي الله عنهم : «يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ» ؟ قَالَ ((بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)) ، فعمارة القلب بالإيمان وبأصوله وتحقيق الإيمان في القلب هذا من أعظم ما يكون ، وإذا صلح القلب وعمُر بالإيمان صلحت الجوارح تبعًا له ، لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلب ، فإذا صلح القلب بالإيمان صلُحت الجوارح ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

والقلب والبدن يملأ بالإيمان ، والإيمان يدخل فيه ويتمكن منه بمجاهدة النفس على معرفة الإيمان ومعرفة أصوله والوقوف على دلائله وشواهده وبراهينه ، وكلما زاد العبد في هذا عظُم حظه من الإيمان تحصيلًا له وتمكنًا فيه ،

وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مُلِئَ عَمَّارٌ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ)) ، المشاش: أطراف الأصابع ، يعني امتلأ من الداخل إيمان ، فمن كان شأنه في دينه بهذا الوصف لا يكون حاله كمن يعبد الله على حرف أو يعبد الله بقيامه بأعمال الإسلام الظاهرة ولم تتمكن حقائق الإيمان من قلبه ولم ترسخ في قلبه ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] ، فالإيمان رتبة علية ودرجة رفيعة يبلغها العبد بتوفيق الله عز وجل بمجاهدته لنفسه في تعلم أصول الإيمان .

وأصول الإيمان يتفاوت الناس في معرفتها ؛ فمنهم من معرفته بها معرفة مجملة يصح بها عمله ، لأن العمل لا يصح إلا بقدر من الإيمان يصحح الأعمال ، إذا انتفى هذا القدر بطُل العمل كما قال الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩] ، وكما قال عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل:٩٧] ، فالعمل لا يكون مقبولًا إلا بوجود قدر من الإيمان يصح به العمل ، فمن الناس حظه من الإيمان ما يصح به عمله ، ومنهم من وفَّقه الله عز وجل لمعرفة تفاصيل الإيمان وحقائقه ومعرفة دلائل الإيمان وشواهده وبراهينه ما كان عامرًا به قلبه ، ما كان ممتلأ به قلبه ، فترتفع درجاته عند الله عز وجل بذلك.

وعلى هذا ينبغي أن يُفهم قول بكر بن عبد الله المزني في شأن أبي بكر الصديق قال : «ما سبقهم أبو بكر بكثير عمل ولكن في شيء وقر في قلبه» ، وهذا فيه تنبيه إلى الدرجة العلية التي لم يُسبق فيها أبو بكر رضي الله عنه في الإيمان ، فهو صدِّيق الأمة رضي الله عنه وأرضاه ، فدرجته في الإيمان درجة علية، درجة رفيعة ، وهو المقدَّم في السابقين من هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو خير أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هو رضي الله عنه وأرضاه خير أتباع الأنبياء ، لا يوجد في أتباع الأنبياء من هو خيرٌ منه كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مَا خَلا النَّبِيِّينَ وَالمرْسَلِينَ)) ؛ فهذه منزلة علية ، وإذا نظرت إلى جانب العمل فكان سابقًا غيره في الأعمال ، حتى قال عمر رضي الله عنه: «مَا سَابَقْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَى خَيْرٍ إِلَّا وَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي» فكان سابقًا في العمل ، لكن أراد بكر المزني أن ينبه على قوة الإيمان الذي امتلأ به قلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه .

فشأن الإيمان ومكانته عظيمة جدا ، وحاجة العبد ماسة إلى تعلمه وتعلم أصوله والوقوف على حقائقه وشواهده وبراهينه ؛ ولهذا لا ينبغي للمسلم أن يستكثر على نفسه وعلى وقته قراءة مثل هذه الكتب والرسائل التي تبين الإيمان وتوضح الإيمان ، ولا يقول على وجه القطع لنفسه عن الخير وعن الفهم "أصول الإيمان عرفناها" أو "الإيمان عرفناه" بل الإيمان يحتاج إلى تجديد مستمر ومذاكرة دائمة كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)) ، العبد يحتاج إلى مجاهدة

لنفسه في تجديد الإيمان وتقوية الإيمان وترسيخ الإيمان وتمكين أصول الإيمان في قلبه ، ولهذا كانت الأذكار النبوية المشروعة للأمة كلها تربط الإنسان بالإيمان وأصوله ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه لينام قال: ((اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)) ، وهكذا تجد في الأذكار ما يربط العبد بالإيمان وبأصوله ولاسيما أصل أصول الإيمان وهو توحيد الله وإخلاص الدين له ومعرفته سبحانه وتعالى ؛ فهذا أعظم الأصول وأجلُّها وأرفعها على الإطلاق ، وبقية الأصول تبعٌ له ، ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذا الأصل المكين والأساس المتين الذي هو معرفة الله عز وجل وتحقيق توحيده .

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان» :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين .

«باب معرفة الله عز وجلّ والإيمان به»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) رواه مسلم .

****

قال المصنف رحمه الله بعد أن بدأ بالبسملة وطلب العون من الله تبارك وتعالى: «**بابٌ معرفة الله عز وجل والإيمان به**» ؛ هذا الباب الذي بدأ به المصنف رحمه الله هو أصل أصول الإيمان ؛ معرفة الله جل وعلا والإيمان به.

والله سبحانه وتعالى يُعرف بأمرين :

١. يعرف بآياته ومخلوقاته الدالة عليه ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ، فالمخلوقات دالةٌ على وجود خالقها ، والمصنوعات دالةٌ على وجود صانعها ومبدعها ، فالله عز وجل يُعرف بآياته ولهذا أمرنا سبحانه وتعالى وأمر الناس بالتفكر في آياته والنظر فيها لأنها تدل عليه، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] هذه كلها تدل على الخالق وتشهد على عظمته وكمال صُنعه ودقة خلقه وكمال إبداعه تبارك وتعالى وتقديره ، فهي تدل على الله ، والمخلوقات تدل على خالقها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] ، فالمخلوقات دليل هادٍ إلى الخالق المبدع ، دليلٌ لمعرفة عظمته وكمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره وعظيم تصرفه. قيل لأعرابي بم عرفت ربك؟ قال : «سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير!!» وقيل لآخر بم عرفت ربك؟ قال : "بنقض العزائم وحل الهمم" . فشواهد عظمة

الخالق وكمال قدرته جل وعلا في مخلوقاته لا حد لها ولا عد ، ولهذا قيل «في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد» تبارك وتعالى ، ولهذا جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة جدا فيها التذكير بآيات الله «من آياته كذا ومن آياته كذا ومن آياته كذا» ، يمر عليك في القرآن آيات كثيرة ، أو تُذكر أشياء ثم تُختم الآية «إن في ذلك لآية» ، فهذه آيات وشواهد ودلائل وبراهين على كمال المبدع وعظمة الخالق سبحانه وتعالى .

٢. ويُعرف سبحانه –وهذا الأمر الثاني– بأسمائه وصفاته التي أخبر بها تبارك وتعالى عن نفسه في كتابه وأخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي القرآن لا تكاد تمر بآية في كتاب الله عز وجل إلا وفيها ذكرٌ لشيء من أسماء الله الحسنى أو صفاته العظيمة ؛ وسورة الإخلاص {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن قال العلماء: لأنها أخلصت لبيان صفة الرحمن ، وآية الكرسي كانت أعظم آية في القرآن لأنها أخلصت للتوحيد وبيان صفات الله تبارك وتعالى وعظمته ، فاشتملت من أسماء الله الحسنى ما يزيد على الخمسة أسماء ، ومن الصفات ما يزيد على العشرين صفة ؛ فهي أعظم آية في كتاب الله عز وجل ، وعظمتها من عظمة المعاني الجليلة الكبيرة الفخمة التي اشتملت عليها ، فإن هذه الآية اشتملت من ذكر التوحيد وبيان عظمة الرب وتقرير دلائل التوحيد مالم تشتمل عليه آية أخرى في القرآن الكريم ، وما اجتمع في هذه الآية جاء متفرقًا في آيات كثيرة كما أشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بعض كتبه .

ومعرفة الله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته هذا أشرف العلوم على الإطلاق، ليس في العلوم علمٌ أشرف من هذا العلم ، وليس في العلوم علم أجل من هذا العلم، وكما قيل شرف العلم من شرف معلومه ، وليس هناك أشرف من العلم بالله جل وعلا والعلم بأسمائه سبحانه وتعالى وصفاته العظيمة الدالة على كماله وجلاله وعظمته سبحانه ، وقد قال بعض السلف قديما : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف» ، ذكر هذه الكلمة ابن القيم في بعض كتبه وأضاف إليها معانٍ جميلة قال : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ، فالعبد كلما زاد حظه وعظم نصيبه من معرفته لربه تبارك وتعالى عظم صلاحه واستقامته وزكاء قلبه وطيب عمله وسداد قوله ، قد قال الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] ، والآية شاهدة لما سبق؛كلما عظمت هذه المعرفة في قلب العبد عظم حظه من الخير وزاد نصيبه منه ، والله تبارك وتعالى خلق الخلق لتوحيده ، والتوحيد الذي خلق الله تبارك وتعالى الخلق لأجله يتناول جانبين:

١. الجانب العلمي ؛ وهو المعرفة ، معرفة الله والعلم به سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته .

٢. والجانب الآخر الجانب العملي ؛ وهو إخلاص الدين له وإفراده تبارك وتعالى بالعبادة وحده دون سواه .

وقد ذُكر النوع الأول الذي هو العلمي في آخر سورة الطلاق وبُيّن في الآية أنه مقصودٌ للخلق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢] ، قال "خلق لتعلموا" فمن مقصود الخلق خلق الناس وإيجادهم العلم بالله، لماذا خلقنا؟ لنعلم أنه على كل شيء قدير وأنه تبارك وتعالى أحاط بكل شيء علما ، فالله خلق الخلق ليعرفوه وليعلموا عظمته وجلاله وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه ؛ فهذا مقصود للخلق . والمقصود الثاني للخلق إفراده بالعبادة ووحده دون سواه ، وهذا بيَّنه الله في أواخر سورة الذاريات في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ ؛ هنا خلق ليعبدوا وهناك خلق ليعلموا ، فالخلق مقصوده أمران : العلم والعمل ؛ يقال عن الأول: «التوحيد العلمي» ، ويقال عن الثاني: «التوحيد العملي» . التوحيد العلمي: بمعرفة الله ومعرفة أسمائه ومعرفة صفاته ومعرفة تفرده بأفعال الكمال وصفات الجلال ونعوت العظمة والتدبير والتسخير والتصرف والإحياء والإماتة ، نعلم ذلك ونثبته لله سبحانه وتعالى ونوحد الله تبارك وتعالى به ولا نجعل مع الله فيه شريك ، والجانب الثاني: جانب عملي وهو الذي دلت عليه آية الذاريات ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادته وتوحيده . والمراد بالعبادة : التوحيد ، وقوله ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليوحدون ، فالعبادة لا تصح إلا بالتوحيد ، العبادة التي خلق الله سبحانه وتعالى الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها لا تصح إلا بالتوحيد ، فإذا داخلها الشرك لا تكون عبادة صحيحة ، فالله عز وجل لم يخلق الخلق ليعبدوه ويعبدوا غيره معه! بل خلقهم ليعبدوه وحده ، ولهذا يؤثر عن ابن عباس أنه قال : «كل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمرٌ بالتوحيد» ، فالله عز وجل خلق الخلق ليفردوه وحده بالعبادة، كما أنه سبحانه وتعالى تفرد وحده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير فالواجب أن يُفرد وحده تبارك وتعالى في العبادة ، فلا يُجعل معه شريك في الحب والخوف والرجاء والذل والخضوع والركوع والسجود والذبح والنذر وغير ذلك ، هذه عبادات حقٌ لله ، حقٌ للخالق ، حقٌ للمتفرد ، حق للمبدع للبارئ سبحانه وتعالى ، ولهذا لما عبَد قوم موسى العجل واتخذوه شريكًا مع الله لما أمرهم بالتوبة ماذا قال؟ وانتبهوا لهذه اللطيفة قال: ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] نبههم بذكر اسمه «البارئ» سبحانه وتعالى على بطلان ما هم عليه من عبادة ، لأن كونه تبارك وتعالى وحده البارئ دليل وشاهد على أنه وحده المستحق للعبادة والمستحق لأن يفرد تبارك وتعالى وحده بالطاعة، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] والخطاب هنا للمشركين ؛ لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تبارك وتعالى .

وقول المصنف رحمه الله «**بابٌ معرفة الله عز وجل والإيمان به**» ؛ المعرفة تقدم الحديث عنها . والإيمان بالله المراد به: الإيمان بوحدانيته تبارك وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : الإيمان بالله لا يقوم إلا على هذه الأركان الثلاثة . للإيمان بالله أركان ثلاثة لا قيام له إلا عليها ولا صحة للإيمان بالله إلا بها :

١. الأول : الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته .

٢. والثاني : الإيمان بوحدانية الله في اسمائه وصفاته .

٣. والثالث: الإيمان بوحدانية الله في ألوهيته .

ودين الإسلام سمي توحيدًا لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] ، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص:٦٥] ، وقال جل وعلا: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ، فـ«الأحد» يدل على أحديته ، و«الواحد» يدل على وحدانيته، والأحدية والوحدانية صفتان لله دالتان على تفرده تبارك وتعالى ؛ تفرده بالخلق والرزق والتصرف والتدبير، وتفرده تبارك وتعالى بالأسماء الحسنى والصفات العظيمة ، فهو متفرد بها ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] أي مختصٌ بها متفردٌ بها تبارك وتعالى ، وهو أيضا متفرد بالعبادة يجب أن يُفرد بها ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ [ص:٦٥] فيجب أن يفرد بالعبادة دون سواه ،كما أنه تفرد تبارك وتعالى وحده بالخلق فوجب أن يفرد تبارك وتعالى وحده في العبادة . فالإيمان بالله هو الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته .

ولهذا بدأ المصنف فيما يتعلق بمعرفة الله والإيمان به بدأ ذلك بإبطال الشرك ، لأن المشرك ما عرف الله ولا آمن به ، منبهًا المصنف رحمه الله بهذا البدء بهذا الحديث إلى أن وجود الشرك تنتفي به المعرفة ويبطل به الإيمان ، فمن أشرك بالله ما عرف الله ، ومن أشرك بالله ما آمن بالله ، كيف يكون عارفًا بالله عالما به من يسوّي به مخلوقا من مخلوقاته! كيف يكون مثل هذا عارفا بالله !! ولهذا وصف الله تبارك وتعالى المشركين بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ، فالمشرك ما عرف الله ، لو عرف الله عز وجل حقًا وصدقًا لما اتخذ معه شريكا ، لما سوى به حجرا أو شجرا أو قبرا أو إنسانا أو ملَكا أو أي مخلوق كان ، لا يمكن أن يسوي به مخلوقا من مخلوقاته ، ولهذا الشرك ناشئ عن فساد المعرفة بالله ، ما عرف الله المشرك ، ولا آمن بالله المشرك ، ولأجل هذا بدأ المصنف في باب المعرفة بذكر هذا الحديث العظيم الذي فيه إبطال الشرك ، في أي باب من أبواب الشرك وفي أي مجال من مجالاته الشرك باطل وفيه دلالةٌ على أن صاحبه ما عرف ربه ولا آمن به تبارك وتعالى ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله في أول ما أورده من أدلة حديث أبي

هريرة رضي الله عنه قال : **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))** .

قوله صلى الله عليه وسلم : ((**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**)) هذا حديث قدسي ، والحديث القدسي ألفاظه ومعانيه من الله تبارك وتعالى ، فالله عز وجل قال ذلك لفظًا ومعنى ، ليس معناه من الله ولفظه من الرسول صلى الله عليه وسلم! بل هو بألفاظه ومعانيه كلام الله ، فقول رسولنا عليه الصلاة والسلام ((**قال الله تعالى**)) مفهوم هذه الكلمة أن هذه الكلمات «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ» كلماتٌ من الذي قالها ؟ رب العالمين ، ولو كان اللفظ من الرسول لما جاءت العبارة بهذه الصيغة ((قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك)) ، فهذا كلام من الله حروفه وكلماته ومعانيه كله من الله ، فهو حديث قدسي تكلم به رب العالمين ، والحديث القدسي فيه إثبات الكلام لله عز وجل وأنه يتكلم سبحانه وتعالى كما شاء ، والكلام صفة من صفاته ، وهو تبارك وتعالى يقول الحق ويهدي السبيل جل وعلا.

قال : ((**قال الله تعالى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ**)) وقوله «أغنى» هذا اسم تفضيل ، ليس فعل ماضي وإنما هو اسم تفضيل؛ أغنى الشركاء عن الشرك: أي أن إذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تبارك وتعالى غني عن الشرك ، ولهذا إذا وجد في العمل شرك رده الله على عامله ولم يقبله منه .

قال : ((**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ**)) ؛ الشركاء: أي من هم متشاركون في أمر ، فإذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تبارك وتعالى غني عن الشرك ، ولهذا إذا وُجد في العمل إشراكٌ بالله تبارك وتعالى رُدَّ العمل على صاحبه . فهذا فيه تنبيه للمشرك الذي يعبد الله ويعبد معه غيره بكمال غنى الله تبارك وتعالى عن عباده، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] ، فالله عز وجل غني عن العباد ، والعباد مفتقرون إليه ، والعبادة التي يقوم بها العبد هو المفتقر إليها ، أما الله عز وجل غني عنها لا تنفعه تبارك وتعالى طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى، ولهذا قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى، ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء:١٥] .

قال: ((**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ**))؛ والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله ، سواء خصائصه في ربوبيته ، أو أسمائه وصفاته ، أو ألوهيته ، فمن سوَّى بالله غيره في شيء من خصائصه فقد أشرك بالله تبارك وتعالى شركًا أكبر ينقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين .

قال: ((**عَنْ الشِّرْكِ**))؛ الشرك هو التسوية وعدل غير الله بالله ، ولهذا قال الله عز وجل في وصف المشركين ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام:١] أي يسوُّون به غيره، وقال عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ، فمن سوى غير الله بالله أو عدل غير الله بالله في شيء من خصائص الله في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات فهو مشركٌ بالله تبارك وتعالى الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

ومن الشرك: الشرك الأصغر ؛ لأن الشرك نوعان: شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام وهو ما سبق بيانه ، وشركٌ أصغر وهو يختلف عن الشرك الأكبر في حده وفي حكمه .

وحدُّ الشرك الأكبر عرفناه ؛ تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله ، وحكمه أيضا عرفناه وهو الخلود في النار يوم القيامة .

والشرك الأصغر يختلف عن الشرك الأكبر في الحد والحكم ؛ أما في الحد : فإن الشرك الأصغر هو ما جاء في النصوص تسميته شركًا ولم يبلغ حد الشرك الأكبر وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه ، مثل أن يقع الإنسان في يسير الرياء ، أو يقع من لسانه كلمات وألفاظ شركية لا يقصدها ؛ مثل أن يقول : ما شاء الله وشئت، أو مثل أن يقول والكعبة أو يحلف بمخلوق من مخلوقات الله ، ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) ، الشرك هنا أصغر ، وكذلك قول القائل "لولا البط لأتانا اللصوص أو لولا كذا لكان كذا" أو نحو هذه الألفاظ ؛ فهذه ألفاظ شركية وجاء في النصوص ما يدل على أنها شرك لكنها لا تبلغ رتبة الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

والإسلام جاء بتحريم هذه الألفاظ الشركية والمنع منها صيانةً لجناب التوحيد ، وتعظيمًا لمقام الرب تبارك وتعالى ، وتكميلًا للإيمان وتتميمًا له وحفظا له وحماية لجنابه ، وسدًا للذرائع التي تفضي إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا هذه ألفاظ محرمة ألفاظ شركية يُنهى عنها ويُمنع منها ويحذَّر من فعلها .

ومن الأمور العجيبة المؤلمة المؤسفة وقع في يدي كتاب قبل يومين كتبه أحد المفتين في إحدى الدول ؛ وهو عبارة عن أسئلة وجِّهت إليه فبُدئت بسؤال عن لفظ شركي ، قيل له من حكم من يقول هذا اللفظ؟ أو ما حكم قول هذا اللفظ؟ قال هناك قاعدة –واسمعوا تقعيد الباطل والعياذ بالله– قال "هناك قاعدة وهي: أن الأصل في المسلم سلامته، وأي لفظ يقوله يُحمل على أحسن المحامل فله أن يقول من هذه الألفاظ ما شاء وتحمل له على أحسن محامله" ، ففتح الباب على مصراعيه بهذا التقعيد الفاسد ليقال من الألفاظ الشركية والكلمات الباطلة ليقول الإنسان ما شاء، والعوام الذين يسمعون له تبقى نفوسهم مستمرة ويبقون محافظين على هذه الألفاظ التي جاءت الشريعة بسدها والمنع منها .

قارن قول هذا الرجل بقول النبي عليه الصلاة والسلام لما سمع رجلا يقول "ما شاء الله وشئت" فغضب عليه الصلاة والسلام وقال ((أجعلتني لله ندا! ما شاء الله وحده)) ، أنت لو تفكرت في حقيقة هذا الرجل لما قال "ما شاء الله وشئت" هل كان قاصدًا تسوية مشيئة النبي بمشيئة الله؟ لا والله ، وإنما لفظة جاءت على لسانه فمنعه منها وغضب عليه الصلاة والسلام وقال ((أجعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده)) ويأتي أناس ويقعِّدون قواعد ويضعون أصول للعوام لتبقى هذه الأصول الشركية على ألسنتهم! فأين هؤلاء من هدي النبي عليه الصلاة والسلام وسنَنه القويم ؟ ومضى في فتاواه على هذه الطريقة ، سُئل عن أمور كثيرة جدا ومضى في فتاواه على هذه الطريقة في جانب العقيدة وجانب العبادة وجانب السلوك لا تكاد تجد له فتوى مستقيمة كلها فتاوى يذهب بالناس إلى مذاهب منحرفة وباطلة لا يذكر لهم آية من كتاب الله ولا يذكر لهم حديثا عن رسول الله ولا يذكر لهم مرويا ومأثورا عن سلف الأمة وإنما يتخرَّص ويتقوَّل في دين الله وعلى الله وفي كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا علم ولا فهم؛ فهذا مثل من قال عنهم عليه الصلاة والسلام : ((أَنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ)) فإن خطرهم على الناس عظيم جدا .

الشاهد أن الشرك منه أكبر ومنه أصغر ، والشرك الأكبر ناقل من الملة وصاحبه مخلد في النار يوم القيامة ، والشرك الأصغر يختلف عن الأكبر في الحد والحكم ، ومن حيث الحد عرفنا ، ومن حيث الحكم فالعلماء اختلفوا هل الشرك الأصغر يدخل في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ؟ فمنهم من قال هو داخل لعموم الآية لكنه لا يخلَّد في النار ، لابد أن يعذب لكنه لا يخلد في النار ، ومنهم من قال هو مثل الكبائر وهو أكبر الكبائر وأعظم الكبائر وأخطرها ، وإذا كان للإنسان حسنات راجحة يوم القيامة قد تغطي على يسير الشرك الأصغر الذي وُجد عنده ، لعموم قوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] . قولان لأهل العلم ولكن الشرك الأصغر في غاية الخطورة على الإنسان وهو أعظم من الكبائر المجردة وأخطر منها ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا» .

قال: ((**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا**)) ؛ «عملًا» نكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ أي: أيَّ عملٍ كان ، سواء كان العمل قليلًا أو كثيرا ، أو كان الإشراك قليلًا أو كثيرا يتناول ذلك ، ولهذا هذا الحديث يتناول بعمومه تحريم الرياء وتحريم السمعة وتحريم إرادة الدنيا بالعمل ، فكل هذا داخل في قوله ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) والرياء محبط للعمل ، إذا وُجد مع العمل في أصله أبطله من أصله ، وإذا كان يسيرًا ودخل على جزء من العمل أفسد من العمل ما قارفه ، فهو محبطٌ للعمل ومفسدٌ لما قارفه من العمل لأن الله لا يقبل إلا الخالص ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ)) فسئل عنه فقال

((الرِّيَاءُ)) ، قال ((يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)) ، لا يقبل الله عز وجل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه كما يدل عليه هذا الحديث .

ولهذا يجب على كل عاقل ناصح لنفسه أن يتيقن تمامًا أنه لن يدخل معه في قبره ما هو معدودٌ في صالح عمله إلا ما كان مبتغيا به وجه الله ، لو كانت أعماله التي قام بها أمثال الجبال لا يقبلها الله منه إلا إذا كان قد قصد بها وجه الله سبحانه وتعالى ، فلا يقبل الله من العمل إلا العمل الخالص أي الصافي النقي الذي لم يُرد به إلا الله تبارك وتعالى.

قال: ((**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي**)) أي جعل لغيره فيه شركة .

((**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**)) أي أن الله لا يقبله منه بل يرده عليه ، وهذا فيه دلالة على أن عمل من سوَّى مع الله غيره وأشرك مع الله غيره أن عمله مردودٌ غير مقبول ، فمعنى «تركته وشركه»: أي رددتُ عليه عمله ولم أقبله منه ؛ ففيه أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص.

أعيد ثانية : أن المصنف رحمه الله بدأ بهذا الحديث منبهًا أن من أشرك مع الله تبارك وتعالى غيره ما عرف الله ولا آمن به حقيقة الإيمان ، لأن الشرك إن كان أكبر فهذا بطُل معه كل شيء ، وإن كان أصغر فهذا دليل على نقص الإيمان وضعفه وضعف المعرفة بالله تبارك وتعالى .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد : فنواصل قراءتنا في هذه الرسالة القيمة «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين– تحت باب معرفة الله عز وجلَّ والإيمان به :

وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ؛ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) رواه مسلم .

****

من الإيمان بالله عز وجل ومن معرفته سبحانه الإيمان بأسمائه وصفاته ومعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن العبد كلما عظُم حظه من معرفة أسماء الله جل وعلا وصفاته الواردة في القرآن والواردة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم عظم حظه ونصيبه من الإيمان ، لأن من الإيمان بالله عز وجل الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بها يسبقه معرفتها ؛ ولهذا قال: «معرفة الله عز وجل والإيمان به» ، فلابد من معرفتها من خلال كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثم إتْباع المعرفة بالإيمان ؛ وهو أن يقرَّ قلب المسلم ويصدِّق بهذه الأسماء وهذه الصفات وأنها أسماءٌ لله عز وجل وصفاتٌ لله عز وجل متضمنة لمعاني الجلال والكمال والعظمة والكبرياء ، بحيث يمتلأ القلب بمعرفته بها إيمانًا ويقينًا وتعظيمًا وإجلالًا لله عز وجل وذلًا وخضوعًا له وانكسارًا بين يديه سبحانه وتعالى ؛ وهذه كلها ثمارٌ وآثار لمعرفة الله عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . ولهذا أخذ المصنف يسوق في هذه الترجمة جملةً من الأحاديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام التي فيها التعريف بالمعبود سبحانه وتعالى وذلك بذكر أسمائه جل وعلا وصفاته .

قال : **((وعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ))** هؤلاء الخمس الكلمات التي قام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم معلمًا ومنبهًا ومبيّنا لأصحابه

ولأمته عليه الصلاة والسلام كلها كلماتٌ فيها تعريفٌ بالرب العظيم ، تعريفٌ بالله ، وهذا التعريف بالله من المحاور التي ترتكز عليها دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم . قال العلماء رحمهم الله : إن دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم ترتكز على ثلاث محاور:

١. المحور الأول: التعريف بالرب المعبود والخالق الجليل سبحانه وتعالى .

٢. والمحور الثاني: التعريف بعبادته والطريق الذي ارتضاه لعباده ليتقربوا من خلاله إليه تبارك وتعالى .

٣. والمحور الثالث: بيان ما أعده الله تبارك وتعالى لمن سلك هذا الطريق من ثواب، ولمن حاد عنه وانحرف عنه من عقاب .

فهذا الذي قام فيه النبي عليه الصلاة والسلام هذا من المحور الأول وهو أساسٌ لابد منه ؛ تعريف الناس بربهم ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة جدًا فيها تعريف الناس بالله ؛ بذكر صفاته وأسمائه وعظمته وجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

قال : ((**قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ**)) ؛ وقوله «بخمس كلمات» دليل على دقة الصحابة في ضبط العلم وما يُلقى عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم خمس كلمات فضبَطها بالعدد أبو موسى الأشعري حتى تنضبط ، والأرقام تعين على ضبط العلم وحفظه .

قال: ((**قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**)) ؛ هذه الكلمة الأولى في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وقوله «لا ينام» نفي النوم عنه بل نفي كل نقصٍ عنه يرِد في الكتاب والسنة يتضمن ولابد إثبات كمال ضد ما نُفي ، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم في باب النفي ؛ النفي في الصفات ليس نفيًا صِرفًا ، وإنما هو نفي متضمن لكمال ضد المنفي ، لأن النفي الصِّرف ليس مدحًا ، لا يكون النفي مدحا إلا إذا تضمن معنًى ثبوتي ، ولهذا قوله «لا ينام» نفي النوم فيه إثبات كمال الحياة ، وأنه سبحانه وتعالى له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص ، بخلاف حياة المخلوق ؛ المخلوق حياته فيها نقص ، نوم والنوم ناشئ عن التعب ، يتعب وينصب فيحتاج إلى الراحة يحتاج إلى النوم ؛ فهذا نقص يدل على ضعفه وعجزه ونصَبه وتعبه ، فحياته فيها نقص، أما حياة الله عز وجل فهي حياة كاملة ، حياته تبارك وتعالى حياة لم تُسبق بعدم ((كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ))، في الدعاء: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ)) ، ولا يلحق حياته فناء ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨] ولا يعتري حياته تبارك وتعالى نقص ؛ ولهذا نفى تبارك وتعالى في كتابه النقائص التي تتنافى مع كمال حياته كقوله هنا في الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ)) ، وكقوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨] أي تعب ونصب ؛ فنزه تبارك واتعالى نفسه عن النقائص التي تتنافى مع كمال حياته سبحانه ، فالله جل وعز حيٌ حياةً كاملة لا نقص

فيها بوجهٍ من الوجوه ، حياةٌ لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء ولا يعتريها نقص، النوم نقص ، والسِّنة نقص ، واللغوب نقص ، والموت نقص ، والله منزهٌ عن ذلك كله لكمال حياته تبارك وتعالى.

((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**)) أي أنه منزه عن ذلك كله ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [هود:١٢٣] النائم غافل ، النائم لا يدري ما حوله ، والله جل وعلا منزه عن ذلك كله ، فهو لا ينام ولا ينبغي له أن ينام .

هنا معرفة المسلم بهذا الوصف لله عز وجل وهو وصفه بكمال الحياة وتنزهه عن السِّنة والنوم والموت واللغوب ونحو ذلك لكمال حياته سبحانه وتعالى؛ هذه المعرفة ما الذي تولِّده في العبد من عبودية وذل لله تبارك وتعالى؟ والعلماء رحمهم الله ذكروا أن كل اسمٍ من أسماء الله وكل صفةٍ من صفاته له عبودية يقتضيها ذلك الاسم ، فمن عرف ربه تبارك وتعالى هذه المعرفة أنه جل وعلا له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقصٌ ولا عجزٌ ولا ضعف ، لا يعتريها سنة ولا نوم ولا موت ، حياةٌ تامة كاملة ، ما الذي تولِّده هذه المعرفة من عبودية؟ لاشك أن هذه المعرفة توجِد في العبد صدق الإقبال على الله جل وعلا وحُسن التوكل عليه ودوام الطاعة له ، لأن العبد يعلم أن ربه سبحانه وتعالى الذي يتجه إليه بالعبادة والسؤال والطلب حيٌ لا ينام ، حيٌ لا يموت ، حيٌ لا يمسه لغوب ولا تعب ، فهذا يوجِد فيه توجُّهٌ صادق إليه وحده دون سواه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وهذا يستفيد منه المسلم فائدة : أن الحي الذي يموت لا يعلَّق القلب به ولا يُتوكل عليه ، والحي الذي قد مات من باب أولى لا يُلتجأ إليه ولا يُتوكل عليه ، والجماد الذي ليس له حياة أصلًا من باب أولى لا يُلتجأ إليه ولا يُتوكل عليه ؛ فهذا يبين لنا بطلان عبادة غير الله ، قوله ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**)) هذا من الدلائل العظيمة على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى . يقال لمن يعبد غير الله : تعبد من ينام !! يكفيك أنه ينام ألا تعبده ، هذه وحدها تكفي ، كونه ينام هذا وحده كافٍ ألا يُعبد؛ لماذا ؟ لأن نومه دليل على نقصه ، كيف تعرض حاجتك عليه وكيف تتوكل عليه وهو فيه نقص!! فكيف يُطلب الكمال ممن هو ناقص؟ كيف تُطلب العافية ممن لا يملكها في حق نفسه ، لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا ؛ فهذا وحده كافٍ في بطلان عبادة غير الله، الحي الذي يموت أو ينام هذا كيف يلتجأ إليه ؟! والحي الذي قد مات ودُفن ووُري في التراب كيف يتوجه إليه؟! والحجر الذي هو جماد كيف يتوجه إليه ويلتجأ إليه؟! فهذا من أبين البينات وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى .

ومن يدعو غير الله تبارك وتعالى خُسف عقله ؛ إذ كيف يسوِّي هذه المخلوقات بالرب العظيم والخالق الجليل تبارك وتعالى الذي بيده أزمَّة الأمور جل وعلا !! ولهذا جاء ملاحظة هذا المعنى في أدعية النبي عليه الصلاة والسلام ، كما جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ

وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي؛ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ» التوجه يكون لمن؟ للحي الذي لا يموت ، للحي الذي لا ينام ، للحي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أما الحي الذي يموت والحي الذي ينام والحي الذي تأخذه السنة والنوم والحي الذي ينصب ويتعب ويمرض ويسقم كيف يُتوجه إليه بالدعاء والعبادة والسؤال والطلب !! فهذا من أبين البينات وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله ، وعلى وجوب إفراده تبارك وتعالى وحده بالعبادة والذل والخضوع والانكسار . قال ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)).

الكلمة الثانية قال: ((**يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**)) وجاء في بعض روايات الحديث في الصحيح ((وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)) أي أن الميزان بيده ووزن الأمور بيده وبتدبيره سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، الذي بيده أزمة الأمور تبارك وتعالى. وهذا أيضا من الدلائل والبراهين على وجوب كمال الذل له والخضوع له والانكسار بين يديه تبارك وتعالى . ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) فالأمر بيده تبارك وتعالى ؛ بيده الخفض والرفع، والقبض والبسط ، والعطاء والمنع ، والعز والذل ،كل شيء بيده تبارك وتعالى ، فهذا يدل على شدة افتقار العبد إلى الله وغنى الله سبحانه وتعالى عن عباده ، غنيٌ عنهم من كل وجه وهم فقراء إليه من كل وجه، لا غنى لهم عنه طرفة عين .

والجملة الثالثة قال : ((**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ**)) وهذا فيه أن الأعمال تُرفع إلى الله ؛ أعمال الليل ترفع قبل أعمال النهار ، وأعمال النهار تُرفع قبل أعمال الليل ، يعني أن الأعمال تُرفع إليه أولًا بأول، اليوم بيومه والليل بليلته ، تُرفع إليه أعمال الليل قبل النهار وأعمال النهار قبل الليل ، تُرفع إليه وهو سبحانه وتعالى مطلع عليها لا تخفى عليه تبارك وتعالى منها خافية ، أحصى كل شيء عددا وأحاط تبارك وتعالى بكل شيء علما ، لكن هذا الرفع للأعمال إليه لله تبارك وتعالى فيه حكمة ، فالأعمال ترفع إليه ؛ أعمال الليل التي قام بها العبد في ليله تُرفع قبل أن يأتي الصباح ، وأعمال النهار تُرفع قبل أن يأتي الليل ، فهي ترفع أولًا بأول أعمال الليل وأعمال النهار . فالجملة الثالثة : رفع أعمال الليل قبل أعمال النهار ، والجملة الرابعة: رفع أعمال النهار قبل أعمال الليل ؛ رفعُها إلى الله سبحانه وتعالى .

والرفع في قوله «تُرفع إليه» فيه دليل على علوه سبحانه وتعالى وأنه جل وعلا عليٌّ على خلقه سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وهو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩] فهو العلي سبحانه وتعالى على خلقه . ومن ينكرون علو الله ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ((تُرفع إليه)) ؟ وماذا يفهمون من مثل هذا الحديث ونظائره؟ وكذلك قول الله عز وجل﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] ، ((إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ العبد إِلَيْهِ يَدَيْهِ)) ؛ هذه كلها شواهد على علو الله ، ولهذا

من ينكر علو الله أو يقول -تعالى الله عن ذلك- الله في كل مكان ما معنى ترفع إليه؟ وما معنى إليه يصعد؟ وما معنى تعرج إليه؟ كل هذه الأحاديث ما معناها ؟ على حد قولهم وفهمهم ليس لها معنى .

فالشاهد أن هذا الحديث ونظائره من الدلائل الواضحات على علو الله تبارك وتعالى على خلقه ، وأنه سبحانه وتعالى مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله فوق عباده سبحانه ، وترفع إليه أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل أعمال الليل ، ويوضح هذا المعنى الحديث الآخر عندما قال عليه الصلاة والسلام : ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، فهذا فيه أيضا دلالة على كمال إحاطة علم الله عز وجل بأعمال العباد ، وأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه منها خافية ؛ الأعمال التي تكون بالليل كلها محصاة على العباد وتُرفع إليه -وهذا من كمال حكمته- تُرفع إليه في وقتها ، وأعمال النهار أيضا ترفع إليه ، فالكل محصى ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] ، والعبد إذا كان غارقًا في ذنوبه لا يزال يومًا بعد يوم يحمل وزرًا وإثمًا يمارسه في هذه الحياة ثم ماذا يكون؟ يلقى الله عز وجل بذلك كله محصًى عليه ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ ، يأتي يوم القيامة يحمل وزرًا يلقى الله تبارك وتعالى به .

فقوله ((**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**)) هذا مما ينبه العبد على المراقبة والمحاسبة ومتابعة نفسه في الأعمال ، وينتبه ألا تغرب شمس اليوم ولا يخرج الصباح إلا وله حظٌ من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وعنده سلامة من الآثام والمعاصي والذنوب التي تُسخط الله جل وعلا ، لأن الأمر مستمر كل يوم بيومه وكل ليلة بليلتها ، فهذا يجعل العبد في دوام المحاسبة ودوام المعاتبة لنفسه ودوام المجاهدة على الأعمال الصالحة كل يوم بيومه .

هذا المعنى الذي يُلمِح إليه الحديث تجد كثير منا في أمور الدنيا يلاحظ ذلك ملاحظة تامة وملاحظة دقيقة ، والشيء الذي يُرفع له وقت محدد يرفع فيه تجد الإنسان يأتي به بدقة ؛ لأنه يقول إذا رُفع لا مجال لأن أحصِّله وقد فاتني، فتجده يتابع بدقة تامة حتى لا يفوته ، فهذا المعنى الذي قاله عليه الصلاة والسلام ((يُرْفَعُ إِلَيْهِ -أي إلى الله- عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)) هذا فيه دعوة للعبد لمتابعة الأمر ومجاهدة النفس ومحاسبتها والجد والاجتهاد ، لأن الوقت يمضي والأيام تمضي والليالي تمضي وكل يوم بيومه تُرفع وكل ليلة بليلتها ترفع ، وما ذهب من الليالي والأيام لا يعود ولا يرجع ؛ فهذا فيه دعوة للعبد أن يجدَّ ويجتهد في حفظ أيامه وحفظ لياليه بما يسرُّه أن يلقى الله تبارك وتعالى به ، والليالي والأيام مستودع للأعمال ، وكل ما يكون من العبد في لياليه وأيامه سيلقى الله تبارك وتعالى به يوم القيامة .

ثم ذكر الجملة الخامسة قال : ((**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**)) وبصر الله تبارك وتعالى منتهٍ إلى كل المخلوقات وجميع الكائنات ، فهو سبحانه وتعالى يبصر جميع الكائنات ويرى جميع المخلوقات ، لا يفوته شيء ولا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء سبحانه وتعالى ، يرى سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى تبارك وتعالى جريان الدم في عروقها ، ويرى تبارك وتعالى سريان الماء في عروق النبات ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات لا يخفى عليه شيء لا يعزب عنه شيء لا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء ، مطلعٌ على كل شيء ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى .

يقول صلى الله عليه وسلم هنا: ((**حِجَابُهُ النُّورُ**)) أي حجاب الله النور .

يقول ((**لَوْ كَشَفَهُ**)) يعني لو كشف هذا النور الذي جعله تبارك وتعالى حجابًا له ((**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ**)) ومعنى سبحات وجهه: أي بهاء وجهه ونور وجهه وجلال وجهه وجمال وجهه ((**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**)) وبصره منتهٍ إلى كل المخلوقات يبصر تبارك وتعالى كل شيء ؛ فهذا يدل على كمال الله سبحانه وتعالى وكمال عظمته وبهائه وجلاله وجماله وعظمته سبحانه وتعالى . «سبحات وجهه» أي: بهاء الوجه وحسنه وجلاله وكماله «ما انتهى إليه بصره من خلقه» ؛ فهذا فيه كمال عظمة الله جل وعلا ، وفيه أيضًا ضعف المخلوق ، وأن المخلوق شأنه أن سبحات وجه الله عز وجل لو كُشف عنها الحجاب لاحترق . ويوم القيامة يجعل الله عز وجل للمخلوق قدرة وقوة يتمكن بها من رؤية الله سبحانه وتعالى ، ولهذا رؤية الله لا تكون لأحد في الدنيا، ((اعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، لا تكون إلا يوم القيامة يكرم الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان بلذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى .

قال: ((**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**)) في الحديث إثبات الوجه صفةً لله تبارك وتعالى ، ودعوكم من أقوال العاطلين المبطلين الجاحدين المنكرين المكذبين لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذين يقولون في الله وفي كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام ما لا يعلمون ، ممن خاضوا في التأويل الباطل زعمًا منهم أنهم ينزهون الله تبارك وتعالى ؛ فالله له وجهٌ عظيم جليل يليق بجلاله وكماله ، أثبت ذلك هو سبحانه وتعالى لنفسه ، وأثبت ذلك له رسوله عليه الصلاة والسلام ، فنؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له وجه عظيم يليق بجلاله وكماله ، ووجه الله سبحانه وتعالى له بصر ، قال ((لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره)) أيضا فيه إثبات البصر لله تبارك وتعالى، فهو يبصر جل وعلا ويرى ، ويبصر بعينين جاء ذكرهما في القرآن وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر:١٤] قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)) أي له عينان كاملتان منزهتان عن النقائص والعيوب ، فكل ذلك نؤمن به .

ومن لا يؤمن بذلك ومن ضيَّع هذه المعرفة بالله ترتب على ذلك من ضياع إيمانه ورقَّة دينه وضعف عبادته وضعف صلته بالله بحسب ما ضيَّع من معرفته بربه ، ولهذا قال العلماء: إن للعقائد الفاسدة شؤمًا على أصحابها . من يعطِّلون الصفات ويخوضون فيها تحريفًا وتعطيلًا وجحدًا ونفيا هذه لها شؤم عليهم ، ولهذا تأتي أعمالهم تبعًا لفساد العقائد أعمال ضعيفة وأعمال مضيَّعة وتفريط في الواجبات وفعل للمحرمات ، وهذا كله ناشئ من فساد العقيدة فيما يتعلق بالله وصفاته وأسمائه سبحانه وتعالى .

والواجب على المسلم في هذا الباب «باب الأسماء والصفات» أن يمِرَّ نصوص الصفات كمات جاءت وأن يؤمن بها كما وردت ، آمنَّا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنَّا برسول الله وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نخوض في صفات الله بعقولنا القاصرة كما يفعله علماء الكلام أهل الضلال والباطل ؛ يأتون إلى الصفات المثبتة في القرآن والسنة ويخوضون بعقولهم ، يقول الوجه ما يليق بالله والبصر ما يليق بالله والكذا ما يليق بالله والاستواء ما يليق بالله.. ثم يخوض في تأويلات باطلة تفسد عليه دينه وعلى من يستمع إليه ؛ وهذا كله يجب الإعراض عنه وعدم السماع إليه والبُعد عنه وعن أهله والإقبال على العقيدة الصحيحة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وحتى تعرفوا جيدًا ما أتحدث عنه تذكروا حال الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا الحديث ويقول أمثاله من أحاديث الصفات بأي شيء تلقَّوْها؟ هل سمعتم أن أحدًا من الصحابة قال يوما من الأيام لو كان لله وجها لكان كذا وكذا ؟ لو كان الله مستويًا على عرشه للزم أن يكون كذا؟ أبَلَغَكم شيء عن أحد من الصحابة مثل ذلك؟ هذا كله ضلال لم يوجد إلا مع وجود البدع والضلالات والانحرافات عن دين الله ، أما قاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب تلقي أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بالقبول بدون اعتراض وبدون انتقاد وبدون تحريف وبدون تأويل ، وإنما تلقٍ تام لها بالقبول ، يقول الزهري رحمه الله : «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» ، أما على قاعدة المتكلمين "وعلينا الانتقاد" ، قاعدتهم في هذا الباب وعلينا الانتقاد، لأن المتكلم عندما يقف عند أحاديث الصفات لا يسلِّم وإنما يبدأ ينتقد "لو قلنا كذا للزم كذا" هذا انتقاد ليس تسليمًا ، فقاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب التسليم والإيمان ، وعندهم أنه لا أحد أعرف بالله من الله ، ولا أحد أعرف بالله من خلق الله من رسوله عليه الصلاة والسلام .

والشاهد أن الواجب على المسلم في جميع نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة أن يتلقاها بالتسليم والإيمان التام الكامل ، يثبتها لله تبارك وتعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ)) أخرجاه .

******

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضا في باب التعريف بالله ، تعريف عباد الله بالله سبحانه وتعالى ؛ قال : ((**يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ،سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**)) ؛ وصف يمين الله وهي يده تبارك وتعالى بأنها ملأى، وأيضًا سحاء ، وانتبه للوصفين ففي العلم بهما فائدة عظيمة لك؛ ملأى وسحاء ، قد يكون الإنسان يده فيها شيء من العطاء أو فيها شيء من الامتلاء ولكنها غير سحاء يكون بخيلا ، وقد يكون كريمًا عنده حب للنفقة لكن ما عنده شيء ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ،سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) يد ملأى وأيضًا معطاء سحاء ينفق بالليل والنهار ؛ فهذا يدل على ماذا ؟ يدل على كمال عظمة الله عز وجل وأن الخير بيده سبحانه وأنه واسع العطاء جزيل المن ، عطاؤه كلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦] جل وعلا .

((يمينه ملأى)) إذا عرف العبد أن الله عز وجل شأنه كذلك ؛ يمينه ملأى لا يغيضها أي لا يُنقصها نفقة ، سحاء الليل والنهار ما الذي تولّد هذه المعرفة في قلبه ؟ هذا يولد فيه صدق الإقبال عليه ، يولد فيه المعنى الذي جاء في قوله تعالى ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧] ، ابتغ الرزق عند من يمينه ملأى سحاء الليل والنهار ، فهذه المعرفة تجعل العبد يُقبل على الله ولا يُقبل على أحد سواه تبارك وتعالى ، لأن الرزق بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، الأمور بيده ، هو الرزاق ، قال عز وجل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] .

من القصص اللطيف في هذا الباب : قصة أوردها ابن قدامى رحمه الله عن الأصمعي؛ الأصمعي كان رجل رحالة يرحل للبلدان وللمناطق فيقول : لقيت أعرابي وصفَه الأصمعي بأنه جِلف يعني في تعامله ، فيقول كان على ناقته وكنت أمشي على قدمي فلقيني وهو على الناقة فقال لي ممن أنت؟ قلت له من بني الأصمع ، قال لعلك الأصمعي؟ -كان مشهور في زمانه في الناس- قال أنا هو ، قال من أين جئت؟ قال له الأصمعي جئت من بلد يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال الأعرابي: أوَ للرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ -أول مرة يسمع- قال نعم ، قال اسمعني شيئا منه ، قال انزل من ناقتك فنزل ، يقول فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلت إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] ، قال أوَ هذا كلام الرحمن؟ قلت إي والله هذا كلام الرحمن ، قال امسك ناقتي فمسكها فنحر الناقة وقطّعها قطعًا وقال ساعدني على تفريقها بين الناس ، ضامن الرزق ، ناقته

التي هي معه نحرها وقسّمها ضمن الرزق، امتلأ قلبه بالإيمان بمدلول قوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، يقول ففرّقنا اللحم ومضى وهو يقول﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، ثم لقيته بعد سنوات في مكة في المطاف فعرفني وعرفته فقال لي اقرأ علي من كلام الرحمن، فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلنا قول الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، قال : بعده شيء؟ قلت نعم ، قال اقرأ ، قال ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣] قال الأعرابي كلامًا عجيبا ، قال: سبحان الله ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ يعني نصدقه بدون أن يحلف ، انظر هذا الفقه قال "ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟" ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يحلف سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ .

على كل حال ؛ إيمان العبد بأن الله عز وجل يمينه ملأى يورث العبد افتقارًا ، ذلًا ، سؤالًا ، طلبًا ، طمعًا ، والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يذل له وأن يسأله وأن يلح عليه وأن يطلب منه ، وفي الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((من لم يسأل الله يغضب عليه)) ، يمينه ملأى ، خزائنه ملأى ، ما عنده تبارك وتعالى لا ينفد ثم لا يتجه إليه العبد بالسؤال!! من لا يسأل الله يغضب عليه . يقول الناظم :

والله يغضب إن تركتَ سؤاله — وبنيُّ آدم حين يُسأل يغضب

تجد من الناس من يسأل من يغضبون منه إذا سألهم ويتبرمون ويترك سؤال من يحب منه كل وقت وحين أن يسأله ومن هو خزائنه تبارك وتعالى ملأى سبحانه .

قال: ((**يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**)) وأيضا تُضبط «لا تغيضها نفقة» أي لا يُنقصها .

قال: ((**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ**)) لأن ما عنده لا ينفد سبحانه وتعالى ، عطاءه سبحانه وتعالى كلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ:٣٦] .

((**والقسط بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**)) ؛ والحديث واضح الدلالة بل صريح الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى له يدان تليقان بجلاله وكماله، قال ((يمين الله ملأى.. وبيده الأخرى)) وهذا جاء أيضا التصريح به في القرآن: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] ، فهذا جاء صريحا في كتاب الله عز وجل ، وهو صريح في ثبوت يدين لله سبحانه وتعالى ؛ وهما يدان حقيقيتان تليقان بالله.

ولو قرأت هذا الحديث لوجدت فيه من وصف اليدين ما يقطع دابر المعطلين المؤولين الذين يؤوِّلون اليد إما بالقدرة أو القوة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات ، فوصف اليد هنا بعدة صفات تأملها ؛ وصفها بأنها يمين ، وصف الثانية بأنها أخرى ، ووصفها أيضا بأنها سحاء يعني يعطي ، ووصفها أيضا قال: ((بيده الأخرى الرفع والخفض)) ، وفي الحديث الآخر قال: ((يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار)) ، يقول ابن القيم في كتابه الصواعق : وُصفت يد الله في الكتاب والسنة بما يقارب المئة صفة كلها تدل على أنها يد حقيقية ، مئة صفة مثل: البسط، العطاء، القبض، الأصابع إلى غير ذلك ، قرابة المئة صفة جاءت في الكتاب والسنة ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[الزمر:٦٧] القبض والطي ، والأخذ ((إلا تلقاها الله بيمينه)) أحاديث كثيرة جدا وآيات كثيرة فيها وصف اليد لله تبارك وتعالى بأنها يد حقيقية ؛ ومع هذا الوضوح ومع كثرة هذه الدلائل تجد أهل التأويل الباطل يقفون عند النصوص التي فيها اليد ويصرفونها عن مدلولها ويقولون المراد باليد القدرة .

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قاطع لدابرهم قاصم لهم ، اقرأه عليهم ويكفي في إبطال ما يقولون ، من يقول لك اليد القدرة اقرأ عليه الحديث ، قل له أنت تقول اليد القدرة !ماذا تصنع بهذا الحديث ((يمين الله ملأى)) ماذا تقول؟ قدرته ملأى؟ ((لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وبيده الأخرى)) وبقدرته الأخرى؟ هذا كلام يستقيم ؟ قراءة الحديث هذا وحده كافي في إبطال تأويل المتأولين ، وهذه قاعدة نبّه عليها أهل العلم في رد التأويل ؛ إذا تأول متأول شيئا من صفات الله يكفيك أن تذكر له موارد هذه الصفة في القرآن والسنة موضعًا موضعا ، يكفي إيراد هذا في رد باطله .

الشاهد أن هذا الحديث فيه إثبات عظمة الله وجلاله وكماله ، وأيضا سعة عطائه ومنّه ، وأن الأمور بيده عز وجل العطاء والمنع والخفض والرفع والقبض والبسط كل ذلك بيده ، وإثبات اليمين له ، وإثبات اليد الأخرى له سبحانه وتعالى ، وهذا أيضا ثابت في القرآن ، في سورة الزمر قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قال : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ: ((أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟)) قَلتُ: لَا ، قَالَ : ((لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا)) رواه أحمد .

****

ثم أورد هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وفيه بيان كمال علمه سبحانه وتعالى . قال: ((**رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟ قَلتُ: لَا ، قَالَ لَكِنَّ اللَّهَ**

يَدْرِي)) ؛ فهذا فيه إثبات علم الله المحيط بالعباد والمحيط بالبهائم والدواب وبكل المخلوقات ، أحاط سبحانه وتعالى بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، فكل شيء أحصاه الله سبحانه وتعالى ؛ فهذا فيه إثبات العلم .

وفيه إثبات كمال العدل ولهذا قال : ((**وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا**)) أي يحكم بينهما يوم القيامة ، وهذا المعنى جاء أيضا في الأحاديث الأخرى ما يشهد له ؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) يعني من ضيَّع الحقوق وأدائها إلى أهلها في الدنيا سيؤديها لزامًا إلى أهلها يوم القيامة ، قال: ((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ)) التي نطحتها ، الجلحاء: التي ليس لها قرون. والقرناء: التي لها قرون ، والشاة القرناء إذا نطحت الشاة الجلحاء بقرنها يقتص لها منها يوم القيامة ، فما بالكم بمظالم العباد!!

ولهذا جاء في حديث عبدالله بن أُنيس وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً غُرْلاً بُهْمًا)) قَالوا : وَمَا بُهْمًا يا رسول الله ؟ يعني عرفنا حفاة وعرفنا عراة ؛ حفاة: لا نعال عليهم ، عراة: ليس عليهم ثياب بهما ما معناها ؟ قَالوا : وَمَا بُهْمًا يا رسول الله؟ قَالَ : ((لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ)) ؛ من كان عنده أموال قصور تجارات ممتلكات كل هذه بموته انتهت بالنسبة له ، ليس معهم من الدنيا شيء ، قد ينتهب الإنسان نهبة كبيرة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم ثم يموت بعد انتهابها بساعة فلا يستفيد منها شيئا وتكون يحملها يوم القيامة وزرا ، ويأتي بها يوم القيامة مظلمة . قال ((بُهْمًا أي : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ –سبحانه وتعالى وقد حشر العباد– بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُد كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُب : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدَّيَّانُ ، ثم يقول سبحانه وتعالى : لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْمَةُ)) قَالَ الصحابة رضي الله عنهم: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلاً بُهْمًا ؟ قَالَ : ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) ، وقوله ((بالحسنات والسيئات)) يوضحه الحديث الآخر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة : ((أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟)) قَالُوا : «الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ» ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ هذا معنى قوله في الحديث الأول ((بالحسنات والسيئات)) .

إذًا هذا الحديث فيه من التعريف بالله؛ بيان إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بالمخلوقات ، أحاط بها علما وأحصى كل الأعمال وكل ما يقع أحاط بذلك علما سبحانه وتعالى ، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وأيضًا فيه إثبات عدل الله سبحانه وتعالى ، وأن المظالم لا تضيع حتى قال عليه الصلاة والسلام: ((ولو

كان عودا من أراك)) ما يضيع شيء المظالم لا تضيع حتى لو كان شيئا قليلا لا يضيع ، ((مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ)) ليس هناك شيء يضيع ، فهذا فيه كمال عدل الله سبحانه وتعالى.

وهذه المعرفة بأمثال هذه الأحاديث يورث العبد تقوى الله عز وجل وبُعدًا عن الظلم وبُعدا عن التعدي ، فالمظالم لا تضيع ، والظالم سيلقى الله سبحانه وتعالى بمظالمه وسيجازى ويحاسب بميزان بمثاقيل الذر ، وهذا كله من كمال عدل الله ؛ فهذه معرفة عظيمة يترتب عليها من صلاح العبد وصلاح أعماله وزكاء نفسه وحسن معاملته ومراقبته وبُعده عن المظالم يترتب عليها خير عظيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [النساء:٥٨] ، **ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليها على عينيه . رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم .**

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية** : **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾** [النساء:٥٨] ؛ وهذا الحديث يبين لنا أيضا بابًا من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى ، ويبين لنا أيضًا في الوقت نفسه أثر المعرفة في صلاح العبد ، وأن الأمرين مرتبطان ؛ معرفة العبد بربه يرتبط به صلاح العبد ، ولهذا ربط بين الأمرين عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ فأصلِحوا أنفسكم بأداء الأمانات وجاهدوا أنفسكم على أدائها ، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عليكم ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ؛ انتبهوا ، هذا الذي أُمرتم به وانتبهوا ، الله سميع بصير ، بمعنى أن علم العبد بسمع الله لكلامه ورؤيته لأفعاله وحركاته وسكناته يجعله يحافظ على الأمانة وإذا حكم لا يحكم إلا بالعدل ؛ مراقبةً لله وخشيةً له وطاعةً وعلمًا بأن ربه تبارك وتعالى يسمعه ويراه .

وإيمان العبد الصحيح بأن الله عز وجل يسمعه ويراه يترتب عليه صلاح العبد ، وكم في هذه المعرفة من النفع للعبد لو استحضرها وتذكرها . أحد السلف رأى رجلًا وامرأة في ريبة فقال لهما «إن الله يراكما» سترنا الله وإياكما . ويقول ابن رجب في أحد كتبه : راود أعرابي أعرابية في الصحراء وقال لها نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ،

يعني من ماذا تخافين ما أحد يرانا من أي شيء تخافين؟ قال نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ، قالت له وأين مكوكبها؟ مكوكب الكواكب أين هو ألا يرانا ؟ فاستحضار العبد لرؤية الله له وسماعه لكلامه من الأسس العظيمة لصلاح العبد في أقواله وأعماله . ولو استحضر العبد رؤية الله له وسماعه لكلامه لاستحيا من الله حق الحياء أن يتكلم بكلام يسخطه أو أن يفعل فعلا يسخطه ، لكن ضعف معرفة العبد بأسماء الله وبأن ربه تبارك وتعالى سميع بصير ضعف المعرفة ، توجد عند الناس المعرفة المجملة لكنها متفاوتة فيهم ، فضعف هذه المعرفة في القلوب تجعل العبد ينخرط فيما ينخرط فيه من معاصي ويقع فيما يقع فيه من آثام .

وهنا يقول عليه الصلاة والسلام لما قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ ويضع -أي النبي عليه الصلاة والسلام- إبهاميه على أذنيه والتي تليها السبابة على عينيه؛ قال العلماء رحمهم الله : أراد بذلك تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمعٌ حقيقي وبصر حقيقي ، أراد أن يثبِّت هذا الأمر ويحقق هذا الوصف ويؤكد ثبوته عليه الصلاة والسلام بوضع الإبهام على أذنيه والسبابة على عينيه، تحقيقا للوصف وتثبيتا له . ولهذا نظائر في سنته ؛ مثل لما كان على المنبر وقال عليه الصلاة والسلام ((إن الله يطوي السماوات بيمينه ويهزهن)) وهو على المنبر أخذ يهز النبي عليه الصلاة والسلام يمينه حتى قال الصحابة «أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم!! » أي المنبر .

فهذا كله المراد به تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمع حقيقي وله بصر حقيقي يليق بجلاله ، وليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ، واقرأ هذا المعنى واضحًا في قول الله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ؛ أثبت لنفسه تبارك وتعالى السمع والبصر بعد نفي المثلية ، فماذا أفاد ؟ قال العلماء : في إثبات السمع والبصر بعد نفي المثلية دليلٌ على أن إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله لا يستلزم التشبيه ، فالصفات لله ثابتة على الوجه اللائق بجلال الله تبارك وتعالى وكماله ، وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب . وليحذر المسلم في هذا الباب من أن يبالغ في الإثبات إلى حد التشبيه ، أو يبالغ في التنزيه إلى حد التعطيل ؛ فكل منهما ضلال ، والحق قوام بين ذلك ، الحق حسنة بين سيئتين وهدى بين باطلين ؛ باطل المشبهة وباطل المعطلة ، الحق هو إثباتٌ بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، هذا هو الحق .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ؛ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا

اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ تبارك وتعالى)) رواه البخاري ومسلم.

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ**)) ؛ وهذا الحديث فيه التعريف بالله ببيان كمال علمه وإحاطة علمه وأنه سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علما واختص تبارك وتعالى بعلم الغيب، ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[النمل:٦٥] اختص بذلك ، ولم يُطلِع أحدًا على ذلك إلا في أشياء معينة لحكمة ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾[الجن:٢٦-٢٧] فالله عز وجل اختص بعلم الغيب ، لا يعلم الغيب إلا الله كما يدل على هذا هذا الحديث ، وأيضًا كما يدل عليه الآية التي أشرت إليها ؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله : من ادَّعى علم الغيب فهو كافر؛ لماذا ؟ لأنه مكذب بالقرآن ومكذب بسنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولأنه أيضًا ينازع الله في خصائصه وصفات كماله ، يدَّعي لنفسه منازعة الله في خصائصه وصفات كماله . نبينا عليه الصلاة والسلام سمع امرأة تمدحه تقول: «وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ» فغضب صلى الله عليه وسلم وقال : ((لا يعلم ما في غدٍ إلا الله)) ، فعِلم الغيب من خصائص الرب العظيم سبحانه وتعالى ، لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا . النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، والمخلوقات لا تعلم الغيب ، وإنما الذي يعلم الغيب والشهادة هو رب العالمين .

وعندما نقول «عالم الغيب» فالمراد بالغيب أي بالنسبة لنا نحن ، أما في حقه سبحانه وتعالى فالكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية ، فهو غيبٌ بالنسبة لنا لأنه غائب عنا ، أما الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء وهو مطَّلع تبارك وتعالى على كل شيء ، فهو غيب بالنسبة لنا ، عالمٌ بالغيب أي ما غاب عنا نحن المخلوقات ، أما في حقه سبحانه وتعالى فليس هناك غيب الكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم ما في بطون الأرض ويعلم ما في السماوات ، أحاط بكل شيء علما وأحصى تبارك وتعالى كل شيء عددا .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ**)) وهذا فيه التنبيه على اختصاص الله تبارك وتعالى بعلم هذه المغيبات ، قال: ((مفاتيح الغيب)) الغيب: هو ما غاب عنا ولا سبيل للعبد إلى النفوذ إليه أو إلى معرفته فهو غائب عن الإنسان ، ورب العالمين تبارك وتعالى مختصٌ بالعلم بالمغيبات . ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ)) ثم ذكرها .

قال: **((لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ))** كل الحوادث التي تكون في مستقبل الإنسان في أيامه القريبة أو في أيامه البعيدة، غد القريب أو غد البعيد الله سبحانه وتعالى هو المختص بعلم ذلك .

((وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ))؛ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨] يعني ما يحصل في الرحم من نقص أو ما يحصل في الرحم من ازدياد من ضمور في الجنين وضعف أو مثلًا اكتمال له ونماء هذا من علمه تبارك وتعالى .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ)) يعني لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

((وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ)) لا يدري الإنسان متى يموت ، وإذا كانت منيته في بلد وهو في بلد آخر ساقه الله تبارك وتعالى إلى البد الذي فيه منيته ، وكم من إنسان سافر ليذهب إلى مكان منيته ، كم من إنسان سافر خرج من بيته وركب مطيته ليذهب إلى مكان منيته ، منيته المحددة في مكان معين فيذهب إليها ، تجده يخرج من بيته ويودع أهله ويسافر وقد كُتب له في منتصف الطريق بين مكة والمدينة أن تنتهي حياته فذهب إلى منيته ، كم من إنسان كثير تكون منيته في بلد فيتحرك عندما تدنو منيته يتحرك ليذهب إلى منيته .

وعندما يتفكر الإنسان في القصص التي تحصل في هذا الباب يرى عجبا ويرى كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ، يمر على الناس في واقعهم قصص عجيبة ، من القصص العجيبة في هذا الباب: أن أهل بيتٍ كان والدهم ووالدتهم الكبار الجد والجدة كانوا في سفر وكانوا قادمين فكانوا أبناء الأبناء وهم عدد ينتظرونهم عند الباب لأنه قرُب مجيئهم، فدخل والد أحدهم إلى البيت بعد صلاة المغرب وإذا بابنه نائم عمره ست أو سبع سنوات ، فقال لوالدته أيقظيه قالت هو تعشى ونام ، قال: لا أنا أريد أن يكون مع الأولاد يستقبلون والدنا ، فأيقظته أمه وألبسته وخرج ما أمضى ربع ساعة وصدمته سيارة ومات عند الباب ، أيقظته أمه لماذا ؟ نائم! أيقظته أمه لأن منيته جاءت ، أمه توقظه ووالده يطلب إيقاظه ولو يعلم والده أنه يطالب بإيقاظه ليموت وأمه توقظه وتلبسه ثيابه ليموت ما يدري ، ربع ساعة توقظ ولدها ليذهب ليموت ؛ هذا أمرٌ علمه عند الله ، انظروا للقصة هذه ونظائرها كثير ، إذا جاءت المنية ولا يدري أحد متى تأتي؟ قد تكون بعد ربع ساعة قد تكون بعد دقائق فهذا علمه مختص بالله تبارك وتعالى ، لا يعلم ولا تدري نفس بأي أرض تموت .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ تبارك وتعالى)) ومن ادَّعى علم شيء من ذلك فهو مكذب بالقرآن ومكذب بأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وإذا عرف العبد هذا العلم ، عرف علم الله عز وجل ؛ أن الله عز وجل عليم وعلمه محيط بكل شيء ، وأنه اختص بعلم المغيبات وعلم السرائر وما تخفي الصدور أحاط بكل شيء علما ؛ فهذا يورث العبد مراقبة لله سبحانه وتعالى خشيةً وإقبالا على الله وقيامًا بعبادته إصلاحًا لحاله بينه وبين الله عز وجل .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علمًا نافعا وعملًا متقبلا ورزقًا طيبا . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ؛ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) أخرجاه .

****

أورد المصنف رحمه الله هنا في «باب معرفة الله والإيمان به» هذا الحديث العظيم حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث من جملة الأحاديث التي يعرف بها المسلم ربه تبارك وتعالى ؛ يعرفه ربًا رحيما غفورًا توابا يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، يفرح بتوبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين ، مع أنه تبارك وتعالى غنيٌ عن العالمين ، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، وهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا إنابة من أناب ولا توبة من تاب ولا استغفار من استغفر ، كل ذلك لا ينفعه تبارك وتعالى ولا يزيد في ملكه شيئا ، ولهذا قال سبحانه في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره تبارك وتعالى معصية من عصى، ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[الإسراء:١٥] ؛ ومع هذا كله فمن كمال منِّه وعظيم لطفه

وجميل إحسانه يفرح تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب ، وهذا الفرح هو تفضلٌ ومنٌّ وكرمٌ وإحسانٌ من الله تبارك وتعالى .

وهو جل وعلا يفرح كما أخبر عنه بذلك أعلم عباده به ، إذ لا يوجد في عباد الله من هو أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد صح عنه الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا)) ، فهو عليه الصلاة والسلام أعلم عباد الله بالله ، وهو لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، وأخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الله يفرح ، فنحن نخبر عن الله بما أخبر عنه به رسوله ومجتباه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فنقول مؤمنين معتقدين : إن ربنا يفرح بتوبة التائبين ، ولا نشك في ذلك ولا نرتاب ، ولا ندخل في هذا الحديث أو غيره من أحاديث الصفات دخول المبطلين المعطلين الجاحدين المؤولين المحرفين ، فكل هذه طرائقٌ زائغة عن سواء السبيل ، بل نُمرُّ نصوص الصفات كما جاءت ونؤمن بها كما وردت وقاعدتنا في هذا الباب: «من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم» ، فنبينا صلى الله عليه وسلم أخبر أن رب العالمين يفرح بتوبة التائبين فنقول معتقدين إن الله يفرح بتوبة التائبين .

وصفات ربنا تبارك وتعالى المضافة إليه سبحانه كلها تليق بجلاله وكماله ؛ فهي ثابتة له سبحانه من غير تمثيل كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] أثبت لنفسه السمع والبصر بعد نفي المثلية ؛ فدل ذلك على أن إثبات الصفات لله سبحانه على الوجه اللائق به لا يستلزم التمثيل . والقول في الصفات قوْل واحد، وباب الصفات بابٌ واحد وهو أنها كلها تمر كما جاءت ويؤمَن بها كما وردت دون أن تحرَّف ودون أن تعطَّل ودون أن تمثَّل بصفات المخلوقين ودون أن يحاول العبد تكييف صفات الرب تبارك وتعالى ، فكل ذلك ضلالٌ وباطل . فمن الإيمان بالله ومن معرفة الله : الإيمان بأنه يفرح بتوبة التائبين ، من إيماننا بربنا جل وعلا أن نؤمن بأنه يفرح بتوبة التائبين ؛ وهذا ما أخبر به رسوله عليه الصلاة والسلام ، بل إنه سبحانه يفرح بتوبة التائبين فرحًا عظيمًا مع غناه جل وعز عن توبتهم ، ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مثلا عجيبًا عظيمًا في بيان عظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده المؤمن ؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ**)) إلى آخر الحديث .

وقوله ((**لَلَّهُ**)) قيل اللام لام الابتداء ، وقيل لام التأكيد .

((**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا**)) وهذا فيه تبيانٌ لعظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب إليه وأناب إليه ورجع إلى الله .

قال ((**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ**)) ؛ وعبده«» هنا إن كان توبة من الكفر إلى الإيمان فالعبودية هنا العبودية العامة التي هي العبودية لربوبيته سبحانه وتعالى ، وإن كان توبةً من العصيان فيما دون الكفر إلى الطاعة فالعبودية العبودية الخاصة التي هي عبوديةٌ لألوهيته ، لأن العبودية تطلق ويراد بها نوعان: العبودية لربوبية الله ، والعبودية لألوهيته .

١. العبودية العامة التي هي عبودية الذل والطواعية لتدبير الله سبحانه وتعالى وتسخيره لهذه الكائنات ولهذه المخلوقات وكونها جميعها طوع تدبيره وتسخيره سبحانه وتعالى ولا تخرج عن مشيئته وإرادته عز وجل ؛ هذا يشمل جميع المخلوقات، يشمل المسلم والكافر والبر والفاجر .

٢. والنوع الثاني: العبودية لألوهيته وهي عبودية الطاعة ، وهذه يتفاوت الناس فيها بتفاوتهم في طاعتهم لله سبحانه وتعالى .

قال: ((**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ**)) وهنا ينبغي أن يُفقه ما يفرح الرب به ؛ وهو توبة العبد .

والتوبة: هي إنابة العبد ورجوعه إلى الله عز وجل بتركه ما فرط فيه من واجب ، ترك التفريط في الواجبات، وترك ما كان يغشاه من محرمات ومنهيات؛ بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وذلك بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر ، فالتوبة رجوع بترك التفريط في الواجب وترك فعل المحرم والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه تبارك وتعالى وزجر . هذه حقيقة التوبة التي دعا الله سبحانه وتعالى عباده إليها وأمرهم بالنصح فيها ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾[التحريم:٨] ؛ أن يكون ناصحًا في توبته .

والتوبة التي امتدح الله عز وجل أهلها وعظَّم شأنهم وأخبر عن فرحه تبارك وتعالى بتوبتهم وذكر أنه يحبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾[البقرة:٢٢٢] وذكر لهم فضائل وثمار وآثار ينالونها في الدنيا والآخرة ، أهل التوبة هم من استجمعت توبتهم شروطًا ، لأن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا استتمت شروطها التي دل عليها كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

❖ وأولها: أن يكون التائب في توبته تائبٌ إلى الله عز وجل مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله ، لهذا قال: ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، قال: ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾[البقرة:٥٤] فالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام في قصة الأسير التي سبق أن أشرت إليها لما أعلن ذاك الأسير توبته قال: «إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد» قال عليه الصلاة والسلام :((عرف الحق لأهله)) ، فالتوبة لله ،﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ولهذا لابد أن يكون التائب في توبته مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله سبحانه وتعالى ، يريد بها الله عز وجل والدار الآخرة ، لا يتوب من أجل شهرة يطلبها أو مراءاةٍ يقصده أو شيئا من هذه المقاصد، وإنما يتوب يبتغي بتوبته رضا الله عنه وأن لا يسخط ربه تبارك وتعالى عليه وأن يحظى بثوابه تبارك وتعالى للتائبين . فهذا الشرط الأول؛ أن تكون التوبة خالصة لله عز وجل .

❖ والشرط الثاني: أن يندم التائب على ذنوبه وتفريطه وتقصيره ووقوعه في المحرمات ، يندم على ذلك ندمًا شديدا ويأسف على ما كان منه من تقصير في جنب الله وفي طاعة الله وفي القيام بالواجبات التي أمر الله تبارك وتعالى بها ، يندم على ذلك .

❖ والأمر الثالث: أن يعقد العزم على أن لا يعود إلى هذه الذنوب؛ يعزم في قلبه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله تبارك وتعالى أن لا يعود إلى هذه الذنوب وأن لا يقارف شيئا منها وأن يمضي على الاستقامة وعلى طاعة الله وعلى ما يرضي الرب تبارك وتعالى .

❖ والأمر الرابع: أن يقلع عن الذنوب؛ لا يسوِّف في الإقلاع وإنما يقلع عنها ويتركها ويقبِل على الطاعات ، وكم فوَّت كثير من الناس حظهم من إقبال قلوبهم على التوبة إلى الله سبحانه وتعالى بالتسويف والتأجيل ، وكم من أناس أجَّلوا التوبة واخترمتهم المنية قبل أن يحققوها ، لا زال يؤجل التوبة يندم على ذنوب فعلها ويتألم على فعله لها ونفسه لا تطاوعه على تركها فيبقى مطاوعًا لنفسه متماديًا في عصيانه مؤجلًا توبته إلى أن يدهاه الموت وهو غير تائب ؛ فيلقى الله عز وجل بغير توبة . ولهذا لابد في التوبة من الإقلاع ، يقلع عن الذنب فورًا ويتركه ، ومع إقلاعه عنه وتركه له يعزم أن لا يعود إليه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله ، ويبقى نادمًا على تفريطه مقبلا على طاعته لربه سبحانه وتعالى .

❖ والشرط الخامس: أن تكون توبته في وقت قبول التوبة ، والتوبة تُقبل في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار باب التوبة مفتوح ، وسيأتي معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) فالتوبة بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة من ليل أو نهار بابها مفتوح ، ولكن دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة ، مع أن بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة فقد دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة :

الأول: أن يغرغر الإنسان وأن تصل روحه الحلقوم وأن يعاين الموت ويشاهد المفارقة لهذه الحياة فيعلن توبته في تلك اللحظات ، فمن كانت توبته في ذلك الوقت لا تُقبل منه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:١٨] هذا ليس وقتًا للتوبة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)) ، إذا بلغت الروح الحلقوم ثم قال "إني تائب الآن أعلن توبتي أتوب إلى الله" هذا لا ينفع ، قال العلماء لأن هذه التوبة توبة مشاهدة وليست توبة غيب ، والذي ينفع هو الإيمان بالغيب ، أما الذي يشاهد الموت ويعاينه ويرى قدومه على الله سبحانه وتعالى ومغادرته لهذه الحياة ثم في تلك اللحظة يعلن توبته هذا ليس وقتًا لها ، ولهذا لا تُقبل التوبة . والله عز وجل لم يقبل من فرعون قوله «آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل» لأنه قالها عن مشاهدة للموت ومعاينة له لما أدركه الغرق .

والوقت الثاني الذي لا تقبل فيه التوبة: طلوع الشمس من مغربها ، وإذا رآها الناس آمنوا جميعًا لكن لا يقبل الله عز وجل التوبة حينئذ ، إذا طلعت الشمس من مغربها وتاب الناس لا يقبل الله عز وجل منهم التوبة في ذلك الوقت كما أخبر بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهذه شروط للتوبة وهي في الوقت نفسه يمكن على ضوء شرح هذا الحديث هي شروط لهذا الأمر العظيم الذي يفرح الله تبارك وتعالى به ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ**)) .

ثم ضرب مثالا يبين عظيم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة التائبين من عباده قال: ((**مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ**)) أي بصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا طعام ولا شراب ((**فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ** -أي راحلته- **وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا**)) أي بحث عنها وطلبها هنا وهناك وهو في الصحراء القاحلة فلم يجد لها أثر ولم يقف لها على عين ولا على خبر ، بحث ولم يجدها فأيس ووقع في قلبه يأس من الحصول على الناقة ((**فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا**)) اضطجع على جنبه في ظل تلك الشجرة ((**وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ**)) وجاء في بعض الألفاظ «فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت» لا طعام ولا شراب ويئس من الراحلة فاستظل في ظل شجرة واضطجع ينتظر الموت . ولنتصور هذه الحال؛ رجل في صحراء قاحلة ، وراحلته ضلت يعني ضاعت عنه ، وبحثها فلم يجدها وأعياه التعب وجلس بلا طعام ولا شراب تحت ظل الشجرة ينتظر الموت الذي يأتيه بالتدريج ضعفًا ضعفًا ضعفًا إلى أن تُزهق روحه ، فهذه حال شديدة جدًا على الإنسان . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((**فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا**)) إذا بناقته واقفة عند رأسه وهو مضطجع ينتظر الموت وإذا بخطامها يتدلى عند رأسه ، رجعت إليه وعليها طعامه وشرابه ، فأخذ بخطامها وأمسك به فرِحًا غاية الفرح، يقول ((**فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ**)) يقول عليه الصلاة والسلام : ((**أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**)) .

هذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأشد ما يكون تصورًا للفرح الذي يقع من العبد ، فرح في غاية الشدة ، وهو مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأعظم ما يكون من فرح العبد في مثل هذه الحالة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بسوق المثال ((وأمسك بخطام ناقته)) بل زاد في البيان قال : ((فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) ، وقوله لهذه الكلمة قالها عن ذهول بسبب الفرح الشديد الذي سيطر على عقله ؛ فذُهل فقال كلمة الكفر ، ولا يكون من يقولها في مثل هذا الذهول كافرًا لأنه لم يقُلها عن اعتقاد بها أو قصدٍ لها أو إرادةٍ لقولها ، وإنما لسانه ارتبك من شدة فرحه فقدَّم كلمةً على كلمة لا يقصد ذلك هو ، لكنه مع ذهوله ومع شدة الفرح الذي عنده تقدمت عنده كلمة على كلمة ، بدل أن يقول «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» أخطأ من شدة الفرح فقدم كلمة على كلمة ؛ هذا التقديم والتأخير لو كان الإنسان يقصده ينتقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين ، ولكنه لذهوله ولسيطرة الفرح

عليه حصل عنده هذا الخطأ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((أخطأ من شدة الفرح)) فهو نوع من الخطأ المعفو عنه، ولا يؤاخذ العبد عليه إذا حصل له شيء من هذا.

الشاهد أن هذا الفرح الذي ذُكر هنا فرحٌ عظيم وهو أشد ما يوصف في فرح العباد ؛ فقال : ((لله أشد فرحا بتوبة عبده إذا تاب)) من هذا الرجل ، وهذا يبين لنا أن إذا كان هذا أعظم فرح يقدَّر في فرح العباد ، والله عز وجل فرحه بتوبة عبده أعظم من هذا ، فمعنى ذلك أن كل فرح يوجد عند العباد لأي أمرٍ يكون مما يفرحون به فرب العالمين سبحانه وتعالى فرحه بتوبة عبده أشد ، لأن هذا مثل لأشد ما يكون من فرحٍ يكون عند العباد ، فهذا كله يبين لنا عظيم لطف الله عز وجل وعظيم منِّه وإحسانه؛ حيث إنه عز وجل مع غناه عن عباده يفرح سبحانه وتعالى بتوبة التائبين .

والعبد العاقل الناصح لنفسه ؛ هذا الحديث عندما يقرأه متأملا له واقفا عند دلالاته يفتح له بابًا عظيمًا في الإقبال على الله والتوبة إليه سبحانه وتعالى ، لو عقل الإنسان وتأمل هذا الحديث ، لو عقل هذا الحديث وتأمله لفتح له بابًا عظيما في التوبة والإقبال على الله سبحانه وتعالى والإنابة إليه ، فالرب جل وعلا يفرح بتوبة عبده إذا تاب وهو غنيٌ عن توبة عبده ، والمحتاج إلى التوبة هو العبد ، الفقير إلى التوبة هو العبد ، المنتفع بالتوبة هو العبد ، الذي ينال ثمار التوبة هو العبد، أما الله سبحانه وتعالى غني ، غنيٌ عن العباد وغنيٌ عن توباتهم ، وانتفاع العبد بتوبته هو انتفاعٌ في الدنيا والآخرة ، لأن التوبة بركة على العبد في دنياه وبركة عليه في أخراه ، والمعاصي والذنوب شؤم ومضرة عليه في دنياه وفي أخراه ، فالحديث يفتح على العبد بابًا للتوبة بل بابًا للمسارعة إليها والمسابقة إليها والمبادرة إليها وعدم تأخيرها .

هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله لأن فيه تعريفًا بالرب؛ وأنه ربٌ كريم ، ربٌ محسن ، ربٌ جواد ، ربٌ لطيف سبحانه وتعالى ، ربٌ غني عن العباد وعن طاعاتهم وعن عباداتهم ، ربٌ يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه ويقبل التوبة.

وليُلحظ هنا أن من دلالات هذا الحديث: أن الله عز وجل فتح باب التوبة للعباد من كل ذنب ، لم يخص ذنبًا دون ذنب بالقبول ، فكل ذنب يتوب منه العبد توبة صادقة يقبل الله تبارك وتعالى منه توبته ويفرح سبحانه وتعالى بتوبته، كل ذنب يتوب منه العبد لو كان الذنب من أعظم الذنوب ومن أكبرها وأشنعها من تاب تاب الله عليه ، ولهذا تجد في القرآن الدعوة للتوبة موجهة للنصارى، موجهة للمشركين، موجهة للعصاة، لكل أحد ،كل أحد مدعو للتوبة وكل أحد مفتوح له باب التوبة مهما عظم جرمه وكبر ذنبه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] يعني بدون استثناء ، أيًا كان الذنب من تاب منه صادقًا تاب الله عليه وقبِل توبته وفرح سبحانه وتعالى بتوبته .

فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تعرِّف الناس بربهم تبارك وتعالى ، ومن عرف هذا الحديث حسُن إقباله على الله ، وزال عنه القنوط من روح الله ، وعظم رجاؤه في الله عز وجل وفي ثوابه ، لم يسيطر عليه يأسٌ يقيِّده ، أو قنوطٌ عن الخير يحجبه ، بل إنه يقبِل على الله عز وجل وينيب إليه ويكون تائبا أوَّابًا ، فالحديث يفتح للعبد أبواب عظيمة جدًا من أبواب الإقبال على الله سبحانه وتعالى. اللهم تب علينا .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) رواه مسلم .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو أيضا من الأحاديث التي فيها تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى . قال عليه الصلاة والسلام : ((**إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**)) ؛ وهذا الحديث فيه من البيان بما يتعلق بمعرفة الله تبارك وتعالى أنه سبحانه وتعالى تواب يقبل التوبة من عباده مهما كانت ذنوبهم ومهما كانت معاصيهم وجرائمهم، يقبل التوبة في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار ، في أي لحظة يقبل تبارك وتعالى التوبة .

ويقول هنا عليه الصلاة والسلام: ((**إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**)) ؛ فهذا فيه دلالة على أن باب التوبة مفتوح ، وتلقي التوبة حاصلٌ وكائن في كل وقت وفي أي لحظة، من تاب في أي لحظة من اللحظات تاب الله عليه ، وهذا فيه من الدلائل : وجوب المبادرة إلى التوبة وحرمة تأخيرها والتسويف فيها ، حتى إن ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين» نبَّه على أمر قلَّ أن يتفطن له كثير من الناس ؛ وهو: أن تأخير التوبة من الذنب يُعد ذنبًا يجب أن يُتاب منه ، قال : «وكثير من التائبين يتوبون من ذنوبهم وينسون التوبة من تأخيرهم للتوبة منها»، وهي فائدة عظيمة جدا نبه عليها ابن القيم رحمه الله ؛ تأخير التوبة هذا ذنب ومعصية يقع فيها العبد أن يؤخر التوبة ، يعني يعلم أنه مذنب وأنه مقصر وأن فعله يُسخط الله ويندم على هذا الأمر ثم يقول الشهر القادم أتوب ، وإذا جاء الشهر القادم أجَّله للذي بعده وهكذا ، هذا التأخير بحد ذاته يعد ذنبًا ، وبعض التائبين يتوب من ذنوبه وينسى أن يتوب من تأخيره ، يتوب من المعصية المعينة أو المعاصي المعينة التي كان يفعلها ولا يتوب من تأخيره للتوبة منها .

فالحديث فيه المسارعة للمبادرة للتوبة قبل فوات أوانها وقبل حصول الحرمان منها ، **((إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ))** كأنه يقال هنا للتائب: يا من أردت التوبة بادر، لا تقُل أؤجلها للوقت الفلاني أفضل، أو لانتهائي من الأمر الفلاني أحسن ، أو نحو ذلك من الخواطر التي تجعل كثير من الناس يؤخرون توبتهم ، بل سارع إليها في أي لحظة ، متى وجد الإنسان من قلبه إقبالًا وفي قلبه ندمًا فليبادر إلى التوبة إلى الله عز وجل توبة صادقة ، وليسأل ربه تبارك وتعالى الثبات على هذه التوبة والعافية والوقاية من الذنوب ويصدُق مع الله عز وجل .

((إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) ولاحظ هنا مسيء الليل ومسيء النهار ؛ وهذا فيه أن إساءات العباد تقع منهم في الليل وتقع منهم في النهار ، وكثير من العباد يتقلب في لياليه وأيامه في إساءة تلو إساءة ، ورب العباد باسطٌ يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، وباسط يده في النهار ليتوب مسيء الله ، وذاك غافل عن هذا كله ويتقلب في ليله ونهاره من مساءة إلى أخرى ومن ذنب إلى آخر ، يصبح على ذنوب ويمسي على ذنوب ، ثم يمسي على ذنوب ويصبح على ذنوب ، ويتقلب في ذنوب في لياليه وأيامه، ثم تكون مصيبته عظيمه عندما يلقى الله عز وجل بهذه المساءات المتراكمة التي اجتمعت له في لياليه وأيامه، يقدُم على الله سبحانه وتعالى ويلقاه بتلك المساءات التي كانت منه والذنوب التي كان يقارفها في لياليه وأيامه ، ويندم ولا ينفعه حينئذ ندم . فكم يغفل الناس عن هذا الحديث العظيم ، ولو تفكر فيه الإنسان لفتح له بابًا عظيما للتوبة إلى الله. وهذا مما يبين لنا أن نقص الناس في إيمانهم وأعمالهم وإنابتهم من نقص معرفتهم بربهم ، ولو تحققت في القلب المعرفة صحيحةً قويةً لترتب عليها صلاحٌ في أعمال العبد وأقواله ، فإذا نقصت معرفة العبد بربه سبحانه وتعالى ترتب على ذلك من ضعف الدين ورقة الإيمان وفساد الخُلق وفساد العمل الشيء الكثير .

قال: **((إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))** أي أنها إذا طلعت من مغربها طُبع على كل قلبٍ بما فيه ؛ إن كان على الاستقامة فهو على الاستقامة ، وإن كان على الضلال والضياع والعياذ بالله كان عليها ، يُطبع على كل قلب بما فيه ، ولا يُقبل التوبة ممن يقول يا رب أنا تبت إليك يا رب أنا تائب إنني تائب أنا نادم ؛ هذه كلها لا تفيد ولا تنفع ، إذا طلعت هذه الآية العظيمة يصبح الناس يومًا وإذا بالشمس بدل أن تطلع على عادتها من المشرق إذا بهم يفاجئون ويرونها تخرج من المغرب ، متجهة من جهة الغرب إلى جهة الشرق إيذانًا بتغير حال العالم وخراب الدنيا وانتهائها وقرب انقضائها وزوالها وذهابها وقدوم الناس إلى الله سبحانه وتعالى ، فمن تاب عند معاينته هذا الأمر لا يقبل الله تبارك وتعالى توبته، كما أنه أيضًا لا يقبل توبته كما تقدمت الإشارة عندما يعاين الموت ويغرغر وتبلغ روحه حلقومه ، فهو في هذه الحالة أيضا لا تُقبل منه توبته .

العاقل عندما يسمع هذا الحديث العظيم يتحرك في قلبه إقبالًا على الله عز وجل ويقول لنفسه محاسبا معاتبا : يا نفس إلى متى هذا التمادي في الإساءة ؟ وإلى متى هذا التمادي في العصيان؟ متى تقلعين أيتها النفس ومتى تتوبين ومتى تندمين؟ يا نفس رب العالمين يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل وهو غنيٌ عن العباد وأنت يا نفس لا تزالي مصرة على العصيان متمادية في الخطأ!! متى يا نفس تتوبين؟ يحاسب نفسه ويعاتبها ؛ وهذا يؤكد ما سبق الإشارة إليه أن معرفة العبد بالله كلما قويت في قلب العبد زان حال العبد وطاب أمره واستقام .

ونسأل الله عز وجل أن يتوب علينا ، وأن يرزقنا أجمعين الاستقامة على صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن عمر رضي الله عنه قال : قُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِسَبْيٍ هَوَازِن؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) قُلْنَا «لاَ وَاللَّهِ» ، فَقَالَ : ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)) .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم أيضًا في باب تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى ، ومن نصح النبي عليه الصلاة والسلام ومن عظيم بيانه في دلالة الناس وتعريفهم بالله ... معينة التي من خلالها عليه الصلاة والسلام يقوي في القلوب ويمكن في النفوس المعرفة بالله عز وجل ؛ منبهًا بذلك عليه الصلاة والسلام أن معرفة الله عز وجل هي غاية المطالب وأجلّ المقاصد ، وهي الباب العظيم لهداية العبد وصلاح قلبه وصلاح أموره كلها ، فكان عليه الصلاة والسلام ينوع البيان ويستغل المواقف ليمكِّن في القلوب المعرفة بالله تبارك وتعالى .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في ذكر رحمة الله جل وعلا وسعة رحمته وأنه تبارك وتعالى أرحم الراحمين جل وعلا ، واستغل عليه الصلاة والسلام هذا الموقف المثير للقلوب في جانب قوة الرحمة يشد القلوب شدًا ، موقف رآه الصحابة يشد القلوب شدًا في جانب الرحمة والإحساس بقوتها ، فاستغل هذا الموقف عليه الصلاة والسلام لبيان عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى .

جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((**قُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِسَبْيٍ هَوَازِن؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ**)) أي من جملة هذا السبي ((**تَسْعَى**)) يعني تجري وتعدو هنا وهناك تبحث عن ولدها طفلها رضيعها ، تبحث عنه ، تفتش عنه بين الناس وقلبها يتفطر ، وأيضا صدرها وثديها امتلأ بالحليب، وامتلاء صدر المرأة بالحليب يُعد مضرة لها وأذى لها ، فصدرها امتلأ حليبًا ، وولدها مفقود، وتعدو هنا

وهناك تبحث عن ولدها ، وهي في غاية اللهف وغاية الشوق تريد ولدها ، بينما هي كذلك **((إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا))** يعني ضمته إلى بطنها ضمًّا شديدًا وألقمته ثديها وأخذت ترضعه ؛ هذه الرحمة التي في هذه المرأة في جريها وبحثها عن هذا الولد وسعيها وراءه ثم إلزاقها له وضمه إلى صدرها بحنان وعطف ورحمة ، هذه الرحمة ما هو قدرها؟

وهنا حقيقة يا إخوان ينبغي أن نقف ونعرف فضل الأمهات ؛ كم نغفل عن هذا الأمر؟ كم يغفل الناس عن فضل الأم ورحمتها وحنانها وإحسانها ؟ كم يغفل الإنسان عندما يكبر ويترعرع وينشغل بأمور الحياة عن إحسانٍ قديم وجميلٍ سابق ورحمةٍ متوالية وحنانٍ عظيم كم يغفل الإنسان عن ذلك؟ فهذا الحديث يصوِّر الرحمة العظيمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم لوليدها ، أمر عجب! حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يبين عظم رحمة الله عز وجل بعباده اختار أعظم مثل يمكن أن يقدَّر ويوصف ؛ وهو رحمة الأم بولدها . وإذا أراد الناس أن يضربوا مثلًا في رحمة الناس بعضهم ببعض لا يجدون مثلا أعظم من رحمة الأم بولدها ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما اختار هذا المثل اختار المثل في أعظم شيء في بابه وهو رحمة الأم بولدها ، ليست هذه الرحمة في الأم من بني آدم حتى في الحيوانات ، سبحان الله الحيوان الوحش الضاري جعل الله سبحانه وتعالى في قلبه رحمة لولده ، رحمة عجيبة جدًا حتى إنه يرفع خفه وحافره لا يطأ ولده مع أنه وحش ضاري! رحمة جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم عجيبة جدا ، ثم في كثير من الناس تُتلقى هذه الرحمة بعقوق وجحود وإساءة وغلظة وفظاظة وينسى ذاك المعروف العظيم، وهذا كله من نقص العقول ونقص الدين ، ولأجل عظم حق الوالدين وحق الوالدة على وجه الخصوص قرن الله سبحانه وتعالى حقها بحقه في أكثر من آية في القرآن الكريم ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء:٣٦]، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فيقول عليه الصلاة والسلام لما رأى هذا المنظر العجيب من الرحمة المتدفقة والحنان العظيم من هذه المرأة بصبيها وولدها وضمته إلى صدرها وأخذت ترضعه بكل حنان وكل شفقة ؛ فانتهز النبي عليه الصلاة والسلام هذه المناسبة لتعريف الناس بعظيم رحمة الله قال لهم: **((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟))** يعني هذه المرأة التي بهذه الصفة وبهذه الحال التي رأيتم هل تتصورون أنها تأخذ هذا الولد الذي أرضعته وتلقيه في وسط النار؟ رحمتها تمنعها من ذلك وتمنعها من أمور أقل من ذلك ، فيقول هل تتصورون أن هذه المرأة تلقي ولدها في النار ؟ قال الصحابة **قُلْنَا «لاَ وَاللَّهِ»** ما يمكن ، يعني رحمة بهذا الحجم وبهذا القدر ما يمكن تلقي ولدها في النار .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)) وهذا المعنى موجود في القرآن ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤] ؛ يعني مهما قُدِّرت الرحمة التي في العباد ، بل لو أن رحمات الراحمين من الناس جُمعت كلها وأصبحت رحمةً واحدة فالله عز وجل أرحم جل وعلا ، أرحم بعباده من كل رحمة تقدَّر عند العباد .

وهذا أيضا من الدلائل العظيمة والشواهد البينة على أن صفات الله سبحانه وتعالى لا يدرك كُنهها الواصفون ولا يمكن أن تقدَّر ، كل ما يخطر ببال الإنسان من كمال يظنه وصفًا لله فالله أكمل وأعظم ، لأن صفاته سبحانه وتعالى لا يبلغ كنهها الواصفون ، مهما قدَّر الإنسان في ذهنه من كمال وجلال وعظمة ، وهذا المثل ذكره النبي عليه الصلاة والسلام لتبيين الأمر وإلا رحمة الله عز وجل لا يُبلَغ كنهها ولا تُعرف كيفيتها ، ورحمة لا يدور عظمها وكمالها في بال ولا يخطر في خيال ، وكيف يبلغ كنه رحمته أو صفاته الواصفون وهو سبحانه وتعالى الكبير المتعال! ألسنا نقول «الله أكبر» ؟ الله أكبر من كل شيء ، الله أكبر من كل ما يدور في خيالنا أو في خواطرنا ؛ فهذا مما يبين لنا عظم رحمة الله سبحانه وتعالى .

إذا كان العبد متماديًا في العصيان غير مقبلٍ على طاعة الرحمن ثم يوم القيامة يصلى النيران فهذا غاية الحرمان ، لماذا؟ لأن الله عز وجل رحيم بعباده وأشد رحمة من هذه بولدها ، ثم العبد يعيش في هذه الحياة ولا يعرِّض نفسه لنيل رحمة الله ، رحمة الله عز وجل للمؤمنين للمتقين للتائبين للمنيبين للمقبلين على الله سبحانه وتعالى . ولاحظ المصنف رحمه الله أورد هذا الحديث بعد الأحاديث التي في التوبة ، يعني كأنه يقول: تفكر وتأمل في عظم فرح الله جل وعلا بتوبة عبده ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى أرحم الراحمين ، ورحمته بعباده لا تقدَّر ولا يُبلغ قدرها أو كنهها . فهذا فيه دعوة عظيمة للتعرض لرحمة الله ونيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، كما أن الحديثين الذين قبله فيهما الدعوة إلى التعرض للتوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

قال: ((**للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)) ؛ فهو عز وجل لا يلقي عباده في النار ، لا يلقي في النار إلا من استحق العقوبة بها، ويلقيه تبارك وتعالى فيها عدلًا منه سبحانه وتعالى . فالحديث يحرك في القلب رجاءٌ وخوف، رغبةٌ ورهبة، ويجاهد العبد نفسه على أن لا يكون محرومًا من هذه الرحمة التي يكتبها الله عز وجل لعباده المؤمنين التائبين المنيبين.

ونسأل الله عز وجل أن يتغمدنا جميعًا برحمته ، وأن يوفقنا لسلوك صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) رواه البخاري .

****

ثم ساق هذا الحديث في أيضا بيان رحمة الله عز وجل وعظم رحمته جل وعلا ؛ قال: ((**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**)) ؛ «عنده» أي عند الله ، « فوق العرش » أي العرش المخلوق العظيم الذي ذكره الله عز وجل في القرآن وذكر جملةً من صفاته ، وذكره النبي عليه الصلاة والسلام في السنة وذكر جملة من صفاته ؛ وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأرفعها ، وأخبر جل وعلا في القرآن في سبع آيات أنه استوى على العرش استواءً يليق بجلاله ، فهو سبحانه عليٌّ على خلقه مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله سبحانه .

وقد كتب كتابًا لما خلق الخلق كتب كتابا وهو عنده سبحانه وتعالى فوق العرش ((**إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**)) وفي رواية «سبقت غضبي» ؛ وهذا فيه كما بيَّن أهل العلم تفاضل الصفات ، قال رحمتي سبقت غضبي ، وأيضا مما يدل على هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ)) .

قال: ((**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**)) وهذا من الدلائل الدالة على عظيم رحمة الله تبارك وتعالى بعباده ، لأن رحمته سبحانه وتعالى تسبق غضبه ، ولا ينال غضب الله تبارك وتعالى إلا الظالم المضيّع المفرط الذي استحق غضب الله تبارك وتعالى عليه .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)) . ولمسلم معناه من حديث سلمان وفيه : ((كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)) ، وفيه : ((فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)) .

****

وهذا أيضا فيه بيان للرحمة ، قال: ((**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ**)) والرحمة هنا المذكورة في هذا الحديث ليست الرحمة التي هي صفة الله ، وإنما هي الرحمة التي هي أثر صفة الله جل وعلا ، وأن الله عز وجل لما جعل الرحمة أي الرحمة التي يتراحم بها المخلوقين جعلها مئة جزء ، يعني قسَّم هذه الرحمة إلى مئة جزء ((**فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**)) فهذه الرحمة الموجودة بين العباد من جملتها ما سبق ذكره في رحمة المرأة بوليدها ؛ هذه رحمة في الحقيقة جزء من مئة جزء .

وقد جاء في الحديث الآخر عند مسلم قال: ((**كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**)) يعني مئة جزء، وكل جزء من هذه الأجزاء طباق ما بين السماء والأرض ؛ يعني يملأ ما بين السماء والأرض .

وفيه: ((**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ**)) يعني كمَّل التسعة وتسعين جزء بهذه الرحمة ؛ فهذا يبين لنا رحمة الله سبحانه وتعالى ، إذا كانت هذه الرحمة التي بين العباد ويتراحمون بها وهي رحمة مخلوقة وهي من أعمال العباد ، إذا كانت بهذا الوصف بينهم فكيف برحمة معطي هذه الرحمة والمانِّ بهذه الرحمة والمتفضل بها**!!** فهذا مما يبين عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى ، لأن معطي الكمال أولى به، ولله المثل الأعلى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) رواه مسلم .

****

وهذا أيضا من الأحاديث التي تبين وتعرِّف الناس بالله تبارك وتعالى وعظيم إحسانه ولطفه بعبده المؤمن المنيب التائب المقبل على الله عز وجل ، وبيان الفرق بين حاله وحال الكافر ؛ الكافر يعامله الله جل وعلا بعدله ، والمؤمن يعامله الله تبارك وتعالى برحمته ونواله وعطائه وفضله .

ولهذا قال هنا : ((**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا**)) ؛ إذا عمل حسنة أي من الحسنات التي لا تفتقر لنية ، لأنه لو صلى وهو على كفره أو صام وهو على كفره أو غير ذلك وهو على كفره لا تُعد حسنات ، لكنه لو ساعد فقيرًا أطعم محتاجا إلى غير ذلك من أبواب الإحسان والمساعدات للناس؛ قال: ((**إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا**)) يعني يعطيه الله سبحانه وتعالى شيئا في الدنيا ، ويأتي يوم القيامة ليس عنده إلا سيئاته، وحسناته التي قدَّمها أخذ عليها حظه في الدنيا ؛ فيلقى الله عز وجل بسيئاته فيُطرح في النار ويبقى فيها مخلدا أبد الآباد ، لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها . وهذا يبين لنا أن الكافر بالله سبحانه وتعالى لو كان يقدِّم من الأعمال أمثال الجبال من النفقات والمساعدات والبذل والمعاملة باللطف وغير ذلك من الأمور كل هذه لا تشفع له يوم القيامة في النجاة من النار ، بل يعطيه الله عز وجل عليها في الدنيا من مثلا الولد أو مثلا الصحة أو التوسيع بالمال أو العافية أو غير ذلك، ويوم القيامة يلقى الله عز وجل بكفره فيعاقبه عليه بالنار خالدًا مخلدا فيها.

قال: ((**وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ**)) يعني يدخر له حسناته ثوابًا في الآخرة يثيبه فيها عليها بالثواب العظيم مع ((**رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**)) يعني يرزقه في الدنيا ويتفضل عليه في الدنيا بالصحة بالعافية بالمال بغير ذلك على تفاوت بين العباد في هذا الأمر لحكمة يعلمها سبحانه ، ولكنه جل وعلا يدخر

للمؤمن حسنات مع ما يعطيه من الرزق ، حتى وإن كان رزقه كفافًا فقد أعطاه الله من انشراح الصدر والقناعة والرضا وسماحة النفس وسرور القلب إلى غير ذلك من المعاني التي يهبها الله جل وعلا لعبده المؤمن .

فهذا من الأحاديث العظيمة التي تعرِّف الناس بعدل الله جل وعلا ورحمته وفضله ومنِّه وإحسانه ؛ حتى ينتبه العبد ويطرد الغفلة عنه ويقبِل على الله سبحانه وتعالى ، لأنه إذا حسُن إقباله على الله نال خيري الدنيا والآخرة كما هو بيّن في هذا الحديث وفاز بخيري الدنيا والآخرة ، لأنه قال: «يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ» ، «وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» ، فجمع بطاعته ومحافظته على الطاعة بين خيري الدنيا والآخرة ، والكافر خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله .

ونقف إلى هنا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

نواصل القراءة في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وله عنه مرفوعا : ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

****

قال رحمه الله: «**وله**» أي مسلم في صحيحه «**عنه**» أي عن أنس بن مالك رضي الله عنه «**مرفوعا**» أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**)) ؛ وهذا الحديث فيه إثبات صفة الرضا لله جل وعلا ، فيه التعريف بالله عز وجل ببيان هذه الصفة العظيمة من صفات الرب العظيم جل وعلا، وأنه عز وجل يرضى .

والرضا صفة فعلية لله جل وعلا ، والصفات الفعلية هي المتعلقة بالمشيئة ، مشيئة الله عز وجل ، فهو عز وجل يرضى عمن يشاء ويسخط على من يشاء ، كما أنه يحب من يشاء ويبغض من يشاء ؛ فهذه كلها صفات فعلية لله جل وعلا . والرضا هذه الصفة دل عليها القرآن في غير موضع وفي غيرما آية؛ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ؛ أثبت رضاه عن المؤمنين سبحانه وتعالى ، وأثبت أيضا رضا المؤمنين عنه ، والمؤمن رضي بالله ربا ورضي برسله ورضي بدينه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً)) .

والله عز وجل من أوصافه كما يدل هذا الحديث أنه يرضى ؛ يرضى عن أهل الإيمان كما أنه رضي الإسلام دينًا لهم، قال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ، فمن ارتضى لنفسه الدين الذي رضيه الله تبارك وتعالى لعباده وعمل به وحافظ عليه رضي الله عنه ، ومن لم يرتضِ لنفسه دين الله تبارك وتعالى الذي ارتضاه لعباده سخط الله عليه، قال عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] ، وقال عن الكفار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد:٢٨] أي بما مالوا إليه من الكفر والإعراض عن دين الله والإقبال على الأمور التي تسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه .

فالرضا صفة عظيمة من صفات الله جل وعلا ، ومما يجب على المسلم أن يعرف به ربه : أن يعرف أن ربه يرضى ويسخط ؛ وهذا يدفع العبد إلى النظر في الأعمال والقربات والطاعات التي ينال بها رضا الله تبارك وتعالى ليفعلها فيفوز برضا ربه سبحانه وتعالى ، وأيضًا في الوقت نفسه ينظر في الأعمال التي تسخط الله جل وعلا وتغضبه ولا ينال بها العبد رضاه فيبتعد عنها ويحذر من مقارفتها والوقوع فيها .

والمصنف رحمه الله نبَّه على هذه الصفة وثبوتها لله عز وجل بإيراد هذا الحديث ؛ وإلا فإن النصوص الواردة في إثبات هذه الصفة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جدا .

قال صلى الله عليه وسلم : ((**إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**)) هذا مما يرضى به تبارك وتعالى عن عبده ؛ إذا أكل أو شرب أن يعترف في قرارة نفسه وفي قلبه بنعمة الله عليه ، وأن هذا فضل الله وأن النعمة نعمة الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؛ فيكون أولًا مقرًا بنعمة الله عز وجل عليه معترفًا بفضله سبحانه وعطائه ونواله ، وعارفًا أن المنعم هو الله، المتفضل هو الله ، الرزاق هو الله ، الكريم هو الله ، مقرٌ بذلك ، ثم يشكر الله عز وجل على النعم ويحمده تبارك وتعالى عليها ، فإذا أكل الأكلة قال "الحمد لله" ؛ لأن هذه الأكلة هي منة الله عليه وفضله ، فيأكل الأكلة فيحمد الله تبارك وتعالى عليها ، ويشرب الشربة فيحمد الله ، وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال "الحمد لله الذي كساني

هذا" ، يحمد الله عز وجل على نعمه ، بل يسأل الله عز وجل أن يوزعه شكر نعمه ، ويستعمل نعم الله عز وجل في طاعته ورضاه وما يقرب إليه .

فإذا كان العبد بهذه الصفة رضي الله تبارك وتعالى عنه ، إذا كان إذا وصلت إليه النعمة اشتغل بالحمد ، بخلاف كثير من الناس في مسألة الطعام والشراب ؛ إذا طعم أو شرب لا يتحدث عن المنعِم حمدًا له وشكرا وإنما يتحدث عن الطاهي للطعام وصفة طهيه للطعام ومهارته فيه وما إلى ذلك من الأمور التي يُشتغل بالحديث عنها ويُغفل عن حمد المنعِم سبحانه وتعالى وشكره سبحانه على منّه وإفضاله . ولابأس الحديث الذي أشرت إليه لابأس لو وقع إذا كان عن حمدٍ لله واعترافٍ بنعمة الله وثناءٍ على الله عز وجل ، أما أن يمضي الإنسان في حياته غافل وكل حديثه عن الأسباب وغافلٌ عن المنعم المتفضل المان فهذا نوع من الغفلة لا ينال بها العبد خيرًا ، بل الخير يناله العبد باستشعار نعمة الله سبحانه وتعالى عليه وبحمده لله عز وجل وشكره لنعمه ، ولهذا أثنى سبحانه وتعالى على أنبيائه بذلك ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل:١٢١] يشكر نعمة الله عليه ، دائم الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمه ، شكرٌ دائم شكر مستمر ماضٍ مع العبد في لياليه كلها وأيامه جميعها يكثر من حمد الله جل وعلا وشكره سبحانه على نعمه ؛ فهذا مما ينال به رضا الله .

الحديث يثبت صفة الرضا لله جل وعلا ، ويثبت في الوقت نفسه ما يُنال به الرضا ، وهذا الحديث فيه تنبيه على الصفة وتنبيهٌ على ما تقتضيه الصفة من عبودية لله جل وعلا ، وهذا أمر ينبغي أن يُنتبه له في باب الصفات وفقهها؛ أن العبد يؤمن بالصفة ويثبتها لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وكماله ، ثم يشتغل بالعبوديات التي تختص بالصفة وتقتضيها ، وقد قال أهل العلم : إن لكل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى عبوديةٌ هي من مقتضياتها وموجبات الإيمان بها ، فإذا آمن العبد بأن الله عز وجل من أوصافه الرضا ، ومن فاز برضا الله عنه فاز بكل خير في الدنيا والآخرة ، وسلِم من كل ضر وشر في الدنيا والآخرة ، فإذا علِم العبد أن ربه تبارك وتعالى من أوصاف جلاله ونعوت كماله أنه يرضى سبحانه ؛ فهذا يحرك في القلب حرصًا على معرفة الأعمال التي يُنال بها رضاه سبحانه وتعالى وجدًّا واجتهادًا في القيام بها ، والحديث يرشد إلى شيء من الأعمال التي يُنال بها رضا الله ؛ أن يأكل العبد الأكلة فيحمد الله جل وعلا عليها ، وأن يشرب الشربة فيحمد الله جل وعلا عليها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرً ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى)) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

قوله «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» في الصحيحين من حديث أنس .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه ، وهو من الأحاديث المبينة لعظمة الله جل وعلا وكمال قدرته وكمال تدبيره جل وعلا ، وما ادَّخره لمن أطاعه من نعيم وثوابٍ عظيم ، وما أعده لمن عصاه من عقاب أليم ؛ وهذه أمورٌ لا تخطر ببال الإنسان من أمورٍ عظيمة وأحوالٍ مهيلة جاء في الكتاب والسنة إشارةٌ إليها وذِكرٌ لأنواعها وأصنافها وشيء من تفاصيلها ، ولكن الحقائق تُدرك يوم القيامة عندما يفوز أهل الإيمان بنعيم الجنة وعندما ينال أهل الكفر عذاب النار . والنبي صلى الله عليه وسلم بيَّن بيانًا وافيًا وفي الوقت نفسه أخبر فيما يتعلق بنعيم الجنة أنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء ، والله جل وعلا يقول في سورة السجدة: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) ، وابن عباس رضي الله عنهما يقول : «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء» يعني عنب ورمان هذه أسماء أما الحقائق التي في الجنة فأمرٌ آخر وشأنٌ آخر .

فالشاهد أن الأمور التي أعدها الله عز وجل لعباده المطيعين في الجنة والعقوبات التي أعدها للعصاة أمور عظيمة جدًا تدل على عظمة الله عز وجل ، وأنه ما خلق هذا الخلق عبثا ولا أوجدهم باطلا ، بل أوجدهم لغاية عظيمة وهي أن يعبدوه ويقوموا بطاعته ، وأعد لمن أطاعه شيئا عظيما لا يخطر بالبال ، وأيضا من نكل وأعرض عما خُلق له وأوجد لتحقيقه أعد الله له عذابا أيضا لا يخطر بالبال ، يقول عليه الصلاة والسلام: ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) ؛ أمور مهيلة جدا الناس في غفلة عنها .

قال : ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)) ؛ قال المصنف هذا الجزء من الحديث موجود في الصحيحين من حديث أنس ، أما السياق بطوله فهو في الترمذي من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

وقوله في حديث أبي ذر: ((**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ**)) هذا أيضا مما يبين عظمة الله جل وعلا ببيان عظمة هذه المخلوقات وكثرتها ، فهي تدل على عظمة خالقها وكمال مبدعها سبحانه وتعالى وموجدها ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١] ، فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يقول: ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ)) يعني ثقلت وصار لها صوت أطيط ، والأطيط: صوت من الثقل ، والثقل ناشئ عن كثرة الملائكة الذين على السماء خلقهم الله سبحانه وتعالى وأوجدهم . أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى كثرتهم قال : ((**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ**)) ، فالسماء ثقلت وصار لها صوت أطيط من كثرة الملائكة الذين عليها ، فهذا يدل على

كثرة الملائكة ، قال عز وجل في بيان كثرتهم: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ [النجم:٢٦] ؛ «كم» للتكثير تكثيرية ، فهم عددٌ كثير لا يعلمهم إلا الذي خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى .

ثم خلْق الملائكة يختلف عن خلق الناس ؛ آتاهم الله عز وجل بسطة وكِبر وسعة وعِظم في الخلق والقوة والقدرة ، أمور جاء شيء كثير منها مبينًا في كتاب الله عز وجل يدل على عظمة خالقها ، خذ مثالا واحدًا –وسيأتي عند المصنف لاحقا أمثلة– قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((أُذِن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة وهو من حملة العرش ؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تخفق فيه الطير سبعمائة سنة)) ؛ يعني لو طار طير من عاتق الملك متجهًا إلى شحمة أذنه يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران حتى يصل إلى شحمة الأذن ، هذا أحد الملائكة .

هذا الخلق العظيم الذي بُيِّن وذُكر والتفاصيل التي ذكرت عن هذه المخلوقات في السنة وفي القرآن وأيضا في هذا الحديث ثقلت السماء بمن عليها من الملائكة ؛ هذا كله يدل على عظمة الخالق لهذه المخلوقات والمبدع لهذه الكائنات والمسخر سبحانه وتعالى ومن بيده أزمة الأمور . وجميع هذه المخلوقات على تنوعها واختلافها واختلاف مواضعها وأماكنها في السماء وفي الأرض وفي بطون الأرض وفي البحار ؛كل هذه المخلوقات رب العالمين آخذ بناصيتها ، جميعها تحت تسخيره وطوع تدبيره جل وعلا ، في حركاتها في سكناتها في جميع أمورها طوع تدبير الله سبحانه وتعالى ، أحاط علمه بها كلها ، فما يقع من أي مخلوق من هذه المخلوقات دقَّ أو جل صغُر أو كبُر إلا وأحاط به علم الله تبارك وتعالى ونفذ فيه تدبيره وتسخيره ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، الخلق خلقه والملك ملكه جل وعلا؛ فهذا مما يبين عظمة الله عز وجل بذكر هذه المخلوقات العظيمة التي أوجدها الرب العظيم وخلقها سبحانه وتعالى. قال: ((**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ**)).

((**وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ**)) أي مما أعده الله سبحانه وتعالى من عقوبة لمن عصاه .

ولاحظ تسلسل الحديث في تقرير معنى مهم ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ)) ؛ الملائكة خلقهم الله عز وجل وجعل فيهم العبادة إلهامًا ، فهم ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] ، ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠] ، هم في دوام عبادةٍ لله ، العبادة عندهم مثل النفَس عند المخلوقين، منتظمين عليها ليس فيهم معصية ، لا يعرف في الملائكة شيء اسمه معصية بل حياتهم كلها طاعة ، المعصية لا توجد عندهم ولا تُعرف عندهم ، خلْقٌ أوجده الله تبارك وتعالى وجعله مطيعًا والله على كل شيء قدير ، خلَقهم جل وعلا وأوجدهم بهذه الصفة مطيعين بدون معاصي ، سخرهم وجعلهم مطيعين ، لا يعصون الله هكذا وصفهم في القرآن ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ

﴾ [التحريم:٦] ، جعلهم الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة ؛ في دوام عبادة ودوام تسبيح ودوام ذكر ودوام تعظيم لله سبحانه وتعالى وامتثال لأوامره ولا يعرف شيء اسمه معصية في حياة الملائكة ، حياتهم كلها طاعة لله سبحانه وتعالى .

فذكر خلْقه لهذه المخلوقات وذكر أيضًا شأن هذه المخلوقات في طاعة الله قال: ((**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ**)) ثم أشار عليه الصلاة والسلام بعد هذا إلى العقوبات المعدَّة لمن خرج عن الطاعة وخرج عن الذل والسجود والخضوع لله سبحانه وتعالى والانكسار بين يديه عز وجل فأشار إلى العقوبات المعدة ؛ فهذا فيه لفت انتباه أن الخلق خُلقوا ليعبدوا الله ، وأن الثقلين أوجدهم الله عز وجل ليقوموا بعبادة الله سجودًا وركوعا وذلا وخشوعا وامتثالا وانقيادًا إلى غير ذلك من الطاعات ، خلقهم الله لذلك ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. من خرج على هذه الطاعة له عقوبة أعدها الله له يوم القيامة؛ فينبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على خطورة هذه العقوبة وأنها ليست بالهينة ، أشار إلى خطورتها وشدتها وفداحتها وعظمها بقوله: ((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ**)) يعني مما أعده الله لمن عصاه من عقوبات ((**لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)) لأنه أمر مهيل جدًا ، ((**وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ**)) لأنه كلما أراد أن يتلذذ الإنسان وردت في ذهنه تلك العقوبات فصرفته عن لذته .

((**وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى**)) أي بالدعاء أن يرحمكم وأن يغفر لكم وأن يعفو عنكم وأن يلطف بكم ؛ «لخرجتم في الصعدات» قالوا «في الصعدات» : في الطرقات تجأرون إلى الله ، وقالوا «في الصعدات» : أي في الصحراء في العراء تجأرون ، و«تجأرون» : أي تلحون على الله عز وجل وتكررون الدعاء والسؤال والطلب ، يقول عليه الصلاة والسلام ((كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ)) ، فالجؤار وتجأرون : أي تكررون وتلحّون وترفعون أصواتكم بالدعاء تسألون الله عز وجل أن يلطف بكم وأن يعفو عنكم وأن يقيكم من عذابه ومن سخطه.

((**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ**)) وهذا ينبه إلى فائدة مهمة جدا في باب الإيمان وهو: أن صحة العلم وسلامة العلم فيه نفع للإنسان في صلاح أموره ، وأن نقص العبادة عند العبد والإقبال على الله ووقوعه في المعاصي فرع ضعف العلم ، إذا ضعف العلم ضعف العمل وضعفت الطاعة ، وإذا قوي العلم في قلب الإنسان قوي إقباله على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا ربط عليه الصلاة والسلام هنا بين العلم وبين ؛ قال ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لكذا)) فيه ارتباط بمعنى أن العلم كلما قويت درجته عند العبد قوي فيه العمل ؛ ولهذا لاحظ الحديث قال: ((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا)) فيه ارتباط بين التقوى والعلم ؛ كلما عظم نصيب العبد من العلم بالله عظم حظه من تقوى الله عز وجل .

إذًا هذا الحديث صلته بالترجمة وهي «باب معرفة الله والإيمان به» أن فيها التنبيه على عظمة الله جل وعلا، وفيها التنبيه على أن المعرفة بعظمة الله عز وجل وبما أعده من ثوابٍ وبما أعده من عقاب توجِد عند العبد صلاحًا واستقامةً وإقبالا على طاعة الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

ولمسلم عن جندب رضي الله عنه مرفوعا : قَالَ رَجُلٌ «وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ» ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ((مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ!! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله والإيمان به سبحانه ، وأن من معرفة الله على ضوء هذا الحديث العظيم أن يعرف العبد أن الله عز وجل واسع المغفرة ، وأنه جل وعلا يغفر الذنوب ، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣] ؛ يغفر الذنب لو كان الذنب فيه تعدٍ في حق الله من سبٍّ أو قولٍ على الله بلا علم ، أو نسبةٍ لله ما لا تليق به جل وعلا ، أو تفريط في جنب الله ، أو غير ذلك من أنواع الذنوب ، الذنوب كلها يغفرها الله في حق من تاب وأناب إلى الله جل وعلا ، والله عز وجل أخبر عن نفسه بذلك: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣]؛«جميعا»: أي بما فيها الشرك والكفر والإلحاد والفسق الذنوب جميعا ، أيُّ ذنب كان يغفره الله في حق من تاب ، ولهذا قال في الآية﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ : أي توبوا إلى الله وأنيبوا إلى الله ، فإن الله عز وجل يغفر الذنوب جميعا .

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] ؛ في سورة النساء قال:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ،وفي آية الزمر قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا تعارض بين الآيتين ، لأن آية الزمر في حق من تاب ، قال ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾أي: توبوا إلى الله، فهي في حق من تاب ، من تاب تاب الله عليه مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه ، وآية النساء في حق من مات على ذلك من مات مشركا لا مطمع له في مغفرة الله ولا سبيل له إلى نيل رحمة الله، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦] ليس له مطمع أبدًا في نيل مغفرة الله عز وجل ورحمته بل ليس له إلا العذاب الأبدي والعقاب السرمدي ، أما من كان على قيد الحياة في الدنيا في ميدان العمل مهما كانت ذنوبه ومهما كان جرمه فالله غفور رحيم ، لو بلغت ذنوب العبد عنان السماء يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: ((يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ –أي

السحاب– ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي)) هذا كلام الرب سبحانه ((يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي)) ، فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعا ولا يتعاظمه ذنب مهما كانت الذنوب .

ولهذا من أيَّس الناس من التوبة والإنابة وقنَّطهم منها فهو متألي على الله سبحانه وتعالى ، كيف يقول في حق الله عز وجل مثل هذا القول؛ والله عز وجل فتح باب التوبة وقبِل توبة من تاب واستغفار من استغفر!! والباب فتحه ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) ، باب الرحمة والمغفرة والتوبة والإنابة مفتوحة لكل أحد ، فإذًا من المعرفة بالله عز وجل أن يعرف المسلم أن الرب العظيم واسع المغفرة ، وأنه يغفر الذنوب مهما عظمت ومهما كانت ، فمن قنَّط عباد الله ويأسهم من التوبة فقد قال على الله عز وجل بلا علم ، وهو من شر الناس وأسوئهم حالًا من يقنط الناس وييأسهم من توبة الله عز وجل .

قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]

قال ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ دعاهم إلى التوبة ، أحد السلف قرأ هذه الآية وقال : «انظروا هذا الكرم ، انظروا هذا الجود! قتلوا عباده، أججوا نارًا لأوليائه ألقوهم في النار ويقول ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ !!» ، باب التوبة مفتوح لكل أحد مهما كان ذنبه. فإذا تألى الإنسان على الله عز وجل ونظر في ذنوب وقع فيها أشخاص أو شخص وقال "هذا لا يتوب الله عليه وهذا لا يغفر الله له" ؛ هذا تألي على الله وقول على الله بلا علم .

وانتبه هنا ؛ الحديث ينبهك على مسألة عظيمة جدا في باب الصفات ، ليس هذه الصفة فقط وإنما في عموم الصفات ؛ ألا وهي: خطورة القول على الله بلا علم في صفاته ، وانتبه لها هذه فائدة عظيمة جدًا يدل عليها هذا الحديث ؛ خطورة القول على الله بلا علم في صفاته ، سواءً في جانب النفي أو في جانب الإثبات .

- في جانب الإثبات: أن يثبت لله عز وجل من الصفات ما لا يليق به .
- وفي جانب النفي: أن ينفي عن الله سبحانه وتعالى من الصفات ما يليق به .

وهنا في هذا الحديث أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أي النوعين؟ إلى النوع الثاني : نفي ما أثبته ، الله عز وجل أثبت في كتابه مغفرة واسعة من الذنوب جميعا ثم يأتي بعض الناس ويقول "هذا الذنب لا يُغفر وهذا الشخص لا يُغفر له" ؛ هذا قول على الله بلا علم ، الله عز وجل أثبت لنفسه مغفرة واسعة ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، وذكر مغفرته في آيات كثيرة وذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث عديدة ثم يأتي شخص ويقول على الله بلا علم "هذا لا يغفره الله وهذا الشخص لا يغفر الله له وهذا لا يتوب الله عليه" أو نحو هذا الكلام !! هذا قول على الله بلا علم في صفات الله جل وعلا ، من أنت حتى تقول "الله لا يغفر لهذا؟! أو هذا لا يتوب عليه؟! أو هذا لا يستحق أن يتاب عليه؟! أو هذا مجرم لا يناله مغفرة الله؟! أو نحو ذلك ، هذا أمر بيد الله عز وجل ،

ومن خاض في هذا خاض في صفات الله بلا علم . إذًا الحديث ينبه على مسألة جليلة وعظيمة جدًا وهي خطورة القول على الله بلا علم ، قال تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

أعيد ثانية في هذا الباب : خطورة القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم تتناول الجانبين: جانب الإثبات وجانب النفي ؛ الإثبات القول على الله بلا علم فيه : بأن ينفي الله ما أثبته الله ، والنفي: خطورة القول فيه بلا علم : أن يثبت الإنسان ما نفاه الله؛ فكلٌ من الأمرين خطير ، وليس لأحد أن يقول في الله عز وجل في باب الإثبات والنفي إلا ما جاء في الكتاب والسنة ، كما قال الأوزاعي رحمه الله : «ندور مع السنة حيث دارت» أي نفيًا وإثباتًا، ما ثبت في الكتاب والسنة أثبتناه ، وما نُفي في الكتاب والسنة نفيناه لا نتجاوز القرآن والحديث ؛ هذا هو النهج السديد والطريق القويم . أما من خاض في هذا الباب بغير علم فأثبت ما نُفي أو نفى ما أُثبت فهذا جرمًا خطيرا وذنبا عظيما .

في مجال الإثبات: يقول الله عز وجل مبينا خطورة نفي ما أثبته الله ؛ قال عز وجل في حق من خاضوا في علمه بغير علم: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٣] قبلها ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٢] ظننتم أن الله لا يعلم ؛ هذا ما هو الآن ؟ هل هو نفي لثبوت صفة العلم لله أصلا؟ أو إثباتٌ لها ولكنهم قالوا إن الله لا يحيط علمه بكل المخلوقات؟ ﴿ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا ﴾ يعني الآية تفيد أنهم يثبتون أن الله عنده علم ولكن علمه ليس محيط ، أيضا من يقول الله عنده مغفرة ولكن مغفرته لا تشمل هذا أو لا تشمل ذاك أو نحو ذلك ؛ هذا كله من نوع الغلط في الأسماء والصفات ، الغلط قد يكون بجحد الصفة أصلا ، أو بجحد شيء من تفاصيل هذه الصفة ، فقد يكون بجحدها أصلا ، وقد يكون بإثبات الصفة مثل أن يثبت الإنسان العلم ولكن يجحد شموله لجميع المعلومات ، أو يثبت المغفرة ولكنه يجحد مغفرته لبعض الذنوب أو لبعض الأشخاص أو نحو ذلك ؛ هذا كله قول على الله بلا علم ، ماذا ترتب عليه؟ قال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٣] أي أوقعكم في الردى . هذا الجانب الأول: نفي ما أثبته الله لنفسه .

الجانب الثاني: إثبات ما نزه الله عنه نفسه هذا ، أيضا غلط عظيم في باب الصفات ، انظر مثالا له في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ [مريم:٨٨] ، نوع الخطأ هنا ما هو؟ إثبات شيء نزه الله نفسه عنه﴿ لَمْ

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣] ، فأثبتوا لله ما نزه الله نفسه عنه ، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم:٨٨-٩١] .

فالخطأ في الصفات سواء في باب النفي أو في باب الإثبات من أعظم الخطأ وأشنعه ، فالحديث فيه بيان فيما يتعلق بمعرفة الله عز وجل والنهج القويم في هذا الباب وهو أن المسلم في باب الصفات يثبت لله تبارك وتعالى ما أثبته الله جل وعلا لنفسه ، وينفي عنه سبحانه ما نفاه عن نفسه ، ويعظِّم ربه جل وعلا ، ويكون حديثه في هذا الباب في حدود دلالات كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وانظر خطورة الغلط مرة ثانية في هذا الحديث الذي بين أيدينا ، قال عليه الصلاة والسلام : ((**قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ**)) ؛ هنا نوع غلط هذا الرجل أنه خاض في صفات الله بغير علم ، وتكلم في صفات الله بلا فهم ولا علم ولا دليل ، أين دليله على قوله هذا "لا يغفر الله" ، ينفي عن الله وصفًا أين الدليل؟ هو لم ينف عنه صفة المغفرة أصلا، لم يقل إن الله لا يغفر ، يثبتها ، ولكنه قيَّدها حجَّر واسعًا قيدها "والله لا يغفر الله لفلان" ، فماذا قال عليه الصلاة والسلام؟

((**فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ**)) ؛ خذ من هذا فائدة أن الخطأ في باب الصفات تألي على الله عز وجل ، قول في الله وفي عظمته وفي رحمته وفي جلاله وفي كرمه وفي مَنِّه قولٌ على الله سبحانه وتعالى بلا علم تطاول ، ((**مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ!!**))

((**إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**)) أي أنه سبحانه وتعالى هيأ لفلان هذا الذي قال عنه ذاك القائل إن الله لا يغفر له هيأ له إقبالًا على التوبة إلى الله عز وجل والإنابة إليه وشرح صدره لها وقبِل منه توبته ، وأحبط عمل هذا القائل على الله بلا علم ؛ فهذا يدل على خطورة الغلط وأنه في غاية الخطورة على الإنسان .

قال: ((**إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ**)) وهنا أيضا فيه فائدة في باب التوبة ؛ توبة الله عز وجل على عبده التي يدل عليها اسمه «التواب» ، أهل العلم يقولون: إن توبة الله على عبده نوعان:

١. توبةٌ من الله على عبده قبل توبة العبد .

٢. وتوبة من الله على عبده بعد توبة العبد .

- التوبة التي قبل توبة العبد هي توفيق الله لعبده للتوبة كما قال عز وجل ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة:١١٨] أي شرح صدورهم وهيأها وجعلها تُقبِل على التوبة ، فإذًا إقبال الإنسان على التوبة وعلى الاستغفار وعلى الإنابة وعلى الرجوع إلى الله هذا أمر بيد من ؟ بيد الله سبحانه وتعالى ، لولا أن الله يشرح صدر العبد للتوبة ويهديه لها ويوفقه إليها وإلا لا يتوب العبد ، فتوبة العبد بيد الله .
- وأيضا قبول التوبة والعفو عن السيئات وغفران الذنوب أيضا الأمر بيده سبحانه وتعالى .

وهذا مما يبين لنا عظم جرم هذا القائل لما قال على الله "إن الله لا يغفر لفلان" ؛ هذا جرم عظيم ، من أنت حتى تقول في شأن الله هذا "لا يتوب على فلان أو لا يغفر لفلان" ؛ بيده أزمة الأمور ، يهدي من يشاء سبحانه وتعالى ويضل من يشاء ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، تجد الإنسان نشأ في بيوت كلهم أموات بالكفر ويحييه الله من بينهم ، يخرجه من بينهم حيًا بالإسلام ينقذه الله سبحانه وتعالى ، وترى آخر ينشأ في بيوت الإسلام ويرتد على عقبيه والعياذ بالله ، فلا يتألى الإنسان على الله، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨] ... إقبال على الله لأن الأمور كلها بيد الله ، غفران ذنوبك توبتك إلى الله إنابتك إليه ، ثباتك على طاعته ، سلامتك من الضلال ، كل ذلك بيد الله سبحانه وتعالى .

وانظر هذا الرجل الذي كان في غفلة وضياع ومقارفة للمعاصي وارتكاب للجرم والذنوب هيئ الله عز وجل له هذا السبب فكان سببًا لتوبته وإنابته ورجوعه إلى الله عز وجل . انتبه هنا ، يعني قد يقول الإنسان مقالة في شخصٍ ما من العصاة هذا فيه ما لا فيه ، وهذا لا يمكن أن يتوب وهذا .. فيتحول بإذن الله تبارك وتعالى هذا الشخص الذي قيل فيه هذا الكلام يتحول إلى أصلح الناس وأحسنهم حالا ، التوفيق بيد الله ، وقد يُخذل الآخر بسبب سوء ظنه بالله وقوله على الله بلا علم . فالواجب على العبد أن يعرف نفسه أنه عبد لله ؛ فيتذلل بين يديه، وينكسر ويطلب منه الهداية والمغفرة والعون ، ويدعو إلى دينه على بصيرة ، ويحذر غاية الحذر من مثل هذا المنزلق الذي هو أخطر المنزلقات وأشنعها وهو باب القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم .

وأختم هنا فيما يتعلق بهذا الحديث ؛ هذا الحديث من أعظم الدلائل على فساد الطرائق المنحرفة التي عليها أرباب الكلام ، عندما يخوضون في صفات الله تبارك وتعالى بلا علم . أوضح لكم القضية ؛ هذا الرجل الذي قال "إن لا يغفر لفلان" هذا الاستنتاج الذي توصل إليه "إن الله لا يغفر لفلان" مبني على ماذا ؟ هل هو قالها هكذا؟ وإلا مبنية على استنتاج معين؟ مبنية على استنتاج ؛ ما هو؟ عقله ، بدأ يحرك عقله القاصر في هذه المسالة ، وعقله بدأ يعدد : فلان أذنب كذا ويوم كذا فعل كذا وفعل كذا واعتدى على كذا ، وأخذ يحلل المسألة عقليا وتوصل بعقله القاصر إلى ماذا؟ إلى جحد هذا ، النتيجة التي توصل إليها بعقله ما هي؟ لا يغفر الله لفلان ؛ أحبط الله عمله ، استنتج بعقله ثم وصل إلى نتيجة لا يغفر الله لفلان ، هذا الاستنتاج العقلي الذي توصل به هذا الرجل إلى هذا الجحد –وهو أيضا لم يجحد الصفة من أصلها وإنما جحد شيئا من تفاصيلها وقيّد الصفة – هذا الاستنتاج العقلي الذي توصل إليه بعقله ترتب عليه حبوط عمله . اقرأ مثل هذه الاستنتاجات العقلية المبني عليها جحد صفات الله في كتب المتكلمين، ليس لها حد ، استنتاجات عقلية ويبنون عليها جحد الصفات ، تجدهم يقول مثلا : لو قلنا إن الله عز وجل يرضى للزم أن يكون كذا ، ولو كان كذا للزم أن يكون كذا ، ويأتي باستنتاجات عقلية يسردها في

الكتاب على أنها نوع من العلم وحقائق ويقينيات يسمونها ، ثم النتيجة جحد الصفات ، رب العالمين يثبت لنفسه وهم يجحدون! .

هذه خلاصة الأمر رب العالمين يثبت؛ أثبت لنفسه الرضا ، أثبت لنفسه الاستواء على العرش، أثبت لنفسه الرحمة، أثبت لنفسه العلو ، أثبت أثبت أثبت صفات كثيرة وفي كتب المتكلمين قوائم من الاستنتاجات يُبنى عليها جحد الصفات، هذا من أخطر ما يكون لو تفكر هؤلاء لو كانوا يعقلون وتفكروا في هذا الحديث فقط لأوجد في قلوبهم خوفًا من هذا الباب ، لو تفكروا في هذا الحديث فقط لعرفوا النهج المبارك الذي كان عليه أئمة السلف ، ما يقولون حرف في صفات الله إلا بآية وحديث ، تجد كتب السلف رحمهم الله يقولون : "من صفات الله الرضا مثلا، أو من صفاته اليدين ، أو من صفاته كذا ؛ حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن فلان قال صلى الله عليه وسلم، أو يأتي بالآية من القرآن" ؛ هذه طريقتهم . وهؤلاء أقحموا عقولهم القاصرة وبدأوا يستنتجون وكانت نتيجة الاستنتاجات هي ماذا؟ جحد صفات الله سبحانه وتعالى ، تقرأ في كتب المتكلمين نفيًا موسعا مطولا لصفات تراها ثابتة في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وهاهنا يأتي سؤال وهو: أي الفريقين أحق بالأمن؟ أي الفريقين أحق بالسعادة؟ أي الفريقين أحق برضا الله سبحانه وتعالى؟ من جعلوا طريقتهم في هذا الباب الإثبات لما أثبته الله ولما أثبته رسوله عليه الصلاة والسلام ونفي ما نفاه الله ونفاه رسوله عليه الصلاة والسلام لا يتجاوزون القرآن والحديث ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله «نصِف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والحديث» ، هذا الفريق؟ أو الفريق الذي مبني اعتقاده على الاستنتاجات؟ وها أنت قد خبرتَ نتيجة الاستنتاج العقلي بصفة واحدة ، أيضا لم يُبنِ على هذا الاستنتاج العقلي جحد الصفة من أصلها وإنما جُحد بعض تفاصيلها فما بالك باستنتاجات عقلية كثيرة بُني عليها جحد الصفات من أصلها ومن أساسها !! فيقولون عن الله لا يرضى ولا يحب ولا يسخط ، ويقولون عن الله لم يستوِ ، ويقولون عن الله أشياء كثيرة الله أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويا سبحان الله أأنتم أعلم أم الله ؟! ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول عن نفسه: ((إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا)) ، ثم يتركون هذا العلم الذي جاء عن الله وهذا العلم الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقحمون عقولهم التائهة التافهة الحقيرة ويستنتجون بناءً عليها هذه الاستنتاجات الباطلة ، بل قالوا – وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا– بل قالوا : "إن العقل مقدَّم على النقل" ، العقل الذي ورَّط هذا الرجل الذي جاء الآن ذكره في الحديث مقدم عندهم على النقل ، النقل فيه﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ وعقل هذا الرجل استنتج أن في ذنوب معينة لا تُغفر ؛ فأحبط الله عمله ، ويقولون إن العقل مقدم على النقل ، وإذا تعارض يقولون عقل على نقل نقدِّم العقل، إذًا ما فائدة بعثة الرسل إذا كانت عقولكم هي المقدمة!! أحد السلف قال لهؤلاء في الر د عليهم «إذًا ليقُل الواحد منكم أشهد أن عقلي رسول الله» ، مادام أن العقل هو

المقدم وما جاء عن الرسول يزنه الإنسان بعقله فما وافق عقله قبِله وما لم يوافق عقله رده ؛ أي إجرام وأيُّ تضييع للدين أفظع من هذا وأشنع نسأل الله العافية والسلامة .

وعلى كل حال نرجع للحديث السابق وهو حمد الله على النعمة ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) ، على الإنسان هنا أن يقف وينظر ما هداه الله إليه من معرفته للحق والصواب ولزوم الكتاب والسنة والبُعد عن تلك الخرافات والضلالات التي تزينت في عقول أصحابها وتزخرفت في أذهانهم وأصبحوا يرونها علمًا سديدًا وأصبحوا هي علمهم الذي يتحدثون به ويسطِّرونه في كتبهم ؛ وهي كلها ضلال وضياع ، على العبد أن ينظر في هذه النعمة التي هداه الله إليها في معرفة الحق فيحمد الله عز وجل عليها .

فنحمد الله حمدًا كثيرًا على كل نعمة أنعم بها تبارك وتعالى علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية ، ونسأله تبارك وتعالى أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يثبتنا على صراطه المستقيم .

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.